العراق في شعر الجواهري
دراسة أدبية

الدكتور
علي محمد حسين الخالدي

المقدمة :

الجواهري عشق العراق حتى العَروق والعراق هام بالجواهري حتى الشغاف، فالجواهري والعراق تاريخ شاعرين ووطنين ونهرين وكوكبين وحبيبين عاشقين حد الوجد والهوس والجنون وهو القائل:

أنا العراق لساني قلبه ودمي فراته وكياني منه اشطار

(أنا العراق) هكذا اطلقها الجواهري ورددها الزمان بملء فيه وإن من يعرف الجواهري ويعرف العراق سيدرك حقيقة ان الشعراء العظام لا تنجبهم إلا أوطان عظيمة وهكذا كان العراق وكان الجواهري.

قبل اكثر من ألف عام حينما وضعت ربة الشعر حملها الشعري الأول المتمثل بالمتنبي ما كانت لتعلم بأن مخاضا أو طلقا آخر سيأتيها بعد عشرة قرون لتضع الجواهري فبين المتنبي والجواهري مسافة ألف عام من الإبداع الشعري.

ففي أوائل القرن العشرين وفي عام ١٩٠٠م تحديدا احضرت ربات الشعر العربيات في الكوفة المهد والتمائم والتعاويذ مع حبات الحرمل والمبخرة... ولم ينسين القماط... وكان المهد مهد المتنبي وقماطه وتمائمه وتعاويذه ذاتها وكانت بقعة الأرض عينها وفي أحد بيوت النجف البسيطة المستظلة بمنائر الإمام علي بن أبي طالب (عليه السلام) وعلى مقربة مُنّ الفرات والى جوار الخورنق والسدير ولد الشاعر محاطا بربات الشعر العربيات من عمات أو خالات ممن حضرن وباركن ولادة المتنبي ولم يكن بايدهن سوى الطاس والمبخرة وفانوس قد اتت به القابلة... ولا يملكن إلا الدعاء بالسلامة للوليد وامه. لقد امتزجت عبارات الدعاء بزغاريد الفرح الذي عم الأسرة الجواهرية كلها.

لقد ولد صنو المتنبي ووارث مجده وعبقريته وكبريائه. ولد محمد مهدي الجواهري وبولادته تدفق نهر من الشعر والسحر والحبر الملون بالتبر والمغموس بالأرجوان فملأ فم الزمان قصيدا ونشيدا وتغريدا وهديرا، لقد ورد الصادح الغرد والشادي الطروب ولد المسامر والمنادم والمريد ولدت العبقرية الشعرية وكان العراق من دون غيره منبتها الدمث ومغرسها الخصيب.

لقد شب الوليد وشق طريقه كالنهر يأخذ مجراه بموازاة الرافدين حتى ذاع صيته ولمع نجمه وبلغ من التألق ما جعله مرادفا لاسم العراق... فالجواهري والعراق تأريخ يمتد لمائة عام.

فمن تسعينيات القرن التاسع عشر إلى تسعينيات القرن العشرين عشر عقود من الزمان، عشرة عقود من الجمان، عشرة عقود من القلائد والاساور والعقود، عشرة عقود من العقود، عشرة عقود من القيود، عشرة عقود من القوافي والجواهري يحدو بالقصيد حتى قال (أكلت القوافي لساني)، عشرة عقود والجواهري يستنهض الشعب ويسخر بالطغاة، عشرة عقود والجواهري يمشي على الجمر والشوك والادغال وهو يغرس النجوم ويترع الكؤوس ويصوغ اللآلئ، عشرة عقود والجواهري يحمل العراق بين جوانحه هماً شعرياً ووطناً مضاماً، عشرة عقود من الحب والشوق والغرام بالعراق، عشرة عقود ومعشوق الجواهري واحد لا يزاحمه أحد هو العراق، عشرة عقود والشاعر واحد لا يطاوله أحد هو الجواهري فمن المهد النجفي الكوفي العراقي إلى مثواه الملائكي الزينبي مائة عام من الشعر المؤجج بالعشق الخرافي بين الجواهري والعراق، فالجواهري تجوهر بالعراق وبالعراق تعرق الجواهري، ولولا العراق ما كان لا الجواهري ولا قبله المتنبي، فالعراق والجواهري متجوهران متعارقان ومتذاوبان ومنصهران كما ينصهر الذهب ويذاب الجمان.

نعم لقد تجوهر العراق بالجواهري بأرضه جبالها وسهولها وهضابها وطيرها ونباتها آرامها اسودها وحتى (ثعالبها) و(كلابها) بجدبها وخصبها، وتجوهر العراق بالجواهري بسمائه نجومها واقمارها وشموسها بغيومها وصحوها بصواعقها بدجلتها وفراتها وضفافها وسواقيها ونخيلها وبساتينها واليانع من ثمارها والمتفتح من زهورها وورودها أبيضها واخضرها زيزفونها واقحوانها. لقد تجوهر العراق بالجواهري بشيبه وشبابه وبالسمراء وبالبيضاء من غيده والمغناج من فاتناته والمزعاج حتى المزعاج من حسناواته وبالطفولة كالبلور من اندائه وبام فراته وامونته وام عوفه.

لقد تجوهر العراق بالجواهري بمنائره ومنابره وجسوره وقصوره ومجالس السمر في مضايفه ودواوينه وبيوت القصب في اهواره (والكبرات) في كردستانه.

تجوهر العراق بالجواهري بملائكته وشياطينه وباحراره وطغاته وشهدائه وبورعه وزندقاته وبوثباته وكبواته بافراحه واتراحه برجاله ونسائه اباعد واقارب اعلاما وادباء ومثقفين وبسطاء.

وما هذه الدراسة إلا استجابة لصوت داخلي مرنان تمازح وصوت الجواهري المنساب في عروق العراق وتخالط مع رنين غناء العراقيين وشدوهم للشمس التي اشرقت أخيرا على ربوعهم وانزاحت غيوم الضيم والعسف والإرهاب عن سمائهم.

العراق في شعر الجواهري دراسة أدبية تقوم على منهج أتناول في ضوئه (العراق) كما رسمته ريشة الجواهري أو التقطته عدسته الشعرية الدقيقة لقد درست العراق في شعر الجواهري ضمن محورين أولهما جماليات طبيعة العراق أرضا وانهارا وظواهر طبيعية وكان لدجلة والفرات موقع الصدارة في هذا المضمار... وقد استجمعت في هذا المحور كل ما قاله الجواهري في الرافدين منفردين ومجتمعين ونوهت إلى جديد الجواهري في شعر الطبيعة وتفرده بخلق رموزه ورعايتها ومدها بطاقة الترميز الشعري.

أما ثانيهما فكان مخصصا لأهل العراق اقارب واباعد أحرارا وطغاة وقد سلطت الضوء على ما تميز به قصيد الجواهري من واقعة محببة تجد انعكاستها في الصور المتقابلة والموزعة بين المشرق منها والمعتم.

وفي مجرى التحليل لشعر الجواهري المهموم بالعراق التقطت بعض السمات الفنية التي وسمت هذا الشعر ومنه تلك الثنائية الشعرية التي غطت ديوان الشاعر كله كما ان هذه الدراسة قد كشفت عن ظاهرة شغف الجواهري بالضوء ومصادره ومرادفاته بوصفه رمزا للامل والثقة بالغد والمنشود والذي انشد له الجواهري وغنى حتى سقطت قيثارة الشعر من يده ١٩٩٧ في دمشق وكف الصادح عن التغريد وتوقف القلب الذي جمع بين إيقاع الشعر بالقوافي وايقاع الجراح عليها النصال... توقف القلب الذي خفق للعراق وكان مأوى نضال الكثير من أهله وبنيه ومرمى سهام حكامه المستبدين طوال حياته.

فلو كان هؤلاء الحكام ما زالوا يحكمون العراق، لما كانت هذه الدراسة وما كان هذا القلم ولا كانت هذه الكلمات. لقد اندحر الطغاة ولعنة التأريخ البشري تلاحقهم وبقي الجواهري وبقيت قصائده أكاليل غار ترصع جبين التأريخ وباقات ورد تؤرج النفوس وتسمو بها حيث تنام النجوم فوق الغيوم هناك هناك في معارج الغيوب.

والعراق في شعر الجواهري موضوع احسبه جديدا لا أحد -في حدود علمي- قد تناوله لما كان يسبب البحث في شعر الجواهري من متاعب وعواقب قد لا يقوى عليها أي عراقي في ظل سلطة فاشية حاربت الكلمة المثقفة وناصبت الشاعر العظيم الجواهري العداء.

واليوم بعد ان اشرقت شمس الحرية واتى اليوم الجارف العرم العصوف الذي وعد الجواهري دجلته به...

لعل يوما عصوفا جارفا عرما آت فترضيك عقباه وترضيني

وبعد ان جاء هذا اليوم ٢٠٠٣/٤/٩ وسقط الطغاة وتهاوى نظام حكمهم... وعم الفرح العراق من أقصاه إلى أقصاه... فلا بد ان يعود الكوكب الذي تغرب إلى مداره وان يسترد ما استلبه الطغاة منه من حقوق طوال مدة حكمهم المقبور ولعل ابسط تلك الحقوق ان

يدرس الشاعر الكبير وتفتح النوافذ الموصدة على بيادر شعره وحدائقه وبساتينه الغناء وان يطلق لكلمة الجواهري عنانها ويفك اسرها ولجامها... لتعود كما كانت مزلزلة يخشاها الجهلة والمنافقون والطغاة طروبا تأنس بها دجلة وترقص على أنغامها الفرات وتزدهي بغداد والنُجف وكل مدن العراق وبقاعه من (ضريح الحسين) في كربلاء حتى (بيت الشعر) لأم عوف في الصحراء.

لقد ملأ الجواهري الدنيا قصيداً وحدادا يغرس هنا زهرة وهناك يفجر بركانا... ستقحم هنا ويناغي كالبلبل هناك ساخراً يتهكم حيناً وجاداً يتهجد حيناً آخر.

هذا هو الجواهري الذي حمل العراق بعذوبته وعذاباته بين جوانحه واجفانه طول قرن كامل فهل يأذن لي بالدخول إلى حرم قصيدته... والعراق مرسوم على أهدابها هماً وجرحاً ووطناً طبيعةً وأهلاً.

الباحث

المحور الأول
طبيعة العراق في شعر الجواهري

لقد احتلت طبيعة العراق مساحة واسعة في خارطة شعر الجواهري لما امتلكت تلك الطبيعة من خصائص جمالية آسرة وهي تتوزع بين الأرض والأنهار والبساتين والأشجار والأغصان والنخيل والظلال والزهور والأوراد والقوارب والأمواج والمروج وكل ما يتصل بتلك المعالم من ألوان وأشكال وتفاصيل.. وللطبيعة في الشعر العربي على اختلاف عصوره موروث ثر سواء كان ذلك في المشرق أم المغرب (الأندلس).. إذ كانت الطبيعة على يراع ممن سبق الجواهري طبيعة مؤطرة بالجمال الموضوعي المسموع أو المرئي أو المذاق والمشموم ومؤتنقة في حرم القصيدة العربية بما أضاف إليها خيال الشعراء من صور شعرية طريفة وما أضفت عليها قرائحهم من حزن وافتنان. وللأندلسيين في هذا المضمار قصب السبق والقدح المعلي وفي مقدمتهم ابن خفاجة وابن الزقاق والرصافي البلنسي وابن اللبانة وابن زيدون فالطبيعة لدى الأندلسيين حية نابضة وناطقة ذات إحساس ومشاعر واذواق وأزياء، غير ان الجواهري الذي تمثل ذلك الموروث النفيس قد تجاوزه بإدخال الطبيعة إلى ما لم تعرفه من قبل وهو عالم السياسة والوطنية والكفاح من اجل الحرية ولعل هذا أحد منجزات شعر الطبيعة في القرن العشرين فالجواهري الذي امتزج في تكوينه السياسي والثقافي والشعري تياران أولهما العراقة بكل ما تحمل من إضاءات توارثتها أجيال القصيدة وثانيهما المعاصرة وما تضمنته من انفتاح واستنارة وانسياح في آفاق الفكر والثقافة والأدب، وقد عبر الدكتور سعيد عدنان في احدث دراسة عن الجوهري عن طبيعة ذلك التكوين بأنه (امتزاج لباب فكر العصر بلباب تراث الشاعر)(١) وقد ترك ذلك التكوين أو ذاك الامتزاج اثارة على الشعر الجواهري فضلا عما كان للتطورات السياسية والاجتماعية في المنطقة العربية من صله بما طرأ على حركة الشعر العربي الحديث والجواهري أحد اكبر عمالقتها ولعل شعر الطبيعة في ديوان الجواهري وما تسم به من تطور كان إحدى ثمرات ذلك الامتزاج أو التكوين الثقافي والسياسي والإبداعي لشاعرنا ناهيك عما اختص به العراق من طبيعة متنوعة واوضاع سياسية متغيرة وحادة، لقد أراق الجواهري في عروق قصيدته (العراقية) ماء شعريا جديدا لم تعرفه القصيدة العربية القديمة الشرقية أو الأندلسية من قبل وقد تمثل ذلك بما توافر لشعر الطبيعة العراقية من عناصر إضاءة وحياة ومرتكزات ديمومة الشعر وخلوده، ومن تلك العناصر أو المرتكزات الإحساس بجمال الموصوف والتعلق بذلك الجمال والشغف به حتى الهيام واعتبار ذلك شكلاً من أشكال الوطنية وأنموذجا متفردا في حب الأوطان فليس بين شعراء الأرض شاعر احب وطنه بهذا الهوس وهذا الوجد وهذا الجنون كما احب الجواهري العراق على الرغم من كثرة أشواكه وحرارة جمره وعتو ونزغ طغاته واستبدادهم فانك ما ان تقرأ للجواهري بيتاً أو بيتين أو مقطوعة أو قصيدة حتى ترى مشاعر الحب تنثال عليك من اردان كلمة هنا أو صورة شعرية هناك إذ يختلط علينا الجمال وتستحيل الأحاسيس في باقة واحدة يجتمع فيها همس الحبيب والحان الموسيقى وعبق الزهر

واريج العطر بخيوط الأشعة وروعة الألوان التي تنبعث لك من شتى بقاع العراق من دجلة إلى الفرات ومنهما إلى أجيال كردستان.. ثم ياخذك الجواهري إلى حيث يرقد الفذ والوتر في الخالدين (الإمام الحسين) ومن هنا إلى جعفر وقيس ومنهما إلى حيث القصيدة ترتدي ثوبها الشعري المهاب إلى (قفص العظام) ثم إلى أم فرات وامونة وام عوف وفي هذا العالم المشحون بالرؤى والأحلام والشجون إلى أعلام العراق وشعرائه مثقفيه وشغيلته.. حتى تصل اعتاب قصور الطغاة وديارهم وبيوتهم التي يلجها عليهم الجواهري. ومن طبيعة العراق كان للرافدين دجلة والفرات مكان الصدارة في قصيدة الجواهري.. ولفرط ما تغلغلت دجلة وانسابت الفرات في شعر الجواهري قد اضحيا رمزين شعريين يمتلكان من طاقة الترميز ما يجعلهما أدوات للبناء الفني لا يمكن الاستغناء عنهما في إطار تجربة الجواهري الشعرية.. فدجلة لم تعد مجرد نهر من ماء وضفاف وقوارب وضفادع ونخيل وبساتين إنما دجلة أصبحت تمثل رؤية جواهرية أو نافذة فنية يرى الشاعر من خلالها الوجود كله ويبث عبرها أشجانه وأحلامه ومواقفه السياسية، حتى صارت رمزا للحب والوطنية والعشق وبهذا نافست الموروث الأسطوري العراقي الذي كاد ان يكون مضمحلا في شعر الجواهري كعشتار مثلاً. وهذا ينطبق على الفرات وبدرجة معينة بكل ما يتصل بارض العراق وطبيعته المجغرفة بالجمال. فمن منفاه نسمع الجواهري يحدو:(٢)

يا دجلة الخير يا أم البساتين حييت سفحك عن بعد فحييني
يا دجلة الخير يا نبعا افارقه على الكراهة بين الحين والحين
اني وردت عيون الماء صافية نبعا فنبعا فما كانت لترويني

بهذا النداء المترف الجميل يناجي الجواهري دجلة الخير مازجاً في ندائه عاطفتين مشبوبتين هما عاطفة حبه للعراق وعاطفة الكراهية لحكامه المستبدين الطغاة. فالقصيدة بمجملها تنبيك بأن الشاعر منفي وبعيد عن وطنه وهو مكره في مغادرته ومحلاً عن ورده كالطير الذي تفزعه شباك الصيادين المضروبة على غدير فالجواهري قد حالته شباك الجلادين (سجونهم) التي نصبها الحكام له ولامثاله من افذاذ العراق واحراره. ومما يتصف به عشق الجواهري لعراقه وشوقه لدجلته وفراته انه ثابت مكين لا ينال منه هجر ولا هجير ولا جفوة فهو عشق اسطوري لم تعرفه قصص حب البلدان من قبل إلا ما ندر وما يؤكد اسطورية هذا الحب تلك الجراح الغائرات في جسد الجواهري وما سال منها من دماء في كفاحه من اجل الحرية والنور والمثل الإنسانية العليا. لقد سار الجواهري على الجمر وداس على الشوك واخترق المخاطر بيد ان حبه للعراق لم يزدد إلا رسوخاً وتوهجاً وهو القائل:

احب حصاها وهي جمرة مؤجج وأهوى ثراها وهو شوك وأدغال

وهو الذي خاطب وطنه بهذه اللغة الآسية:(٣)

نصيبي منك دمع ليس يرقى على البلوى وجنب لا يقر

رضـــى بالحـــالتين ضـــنى وبـــؤس فضـــــر مـــــن بـــــلادي لا يضـــــر
ولســـت ببـــائع ارضـــي بـــأرض وإن لم الـــــق فيهـــا مـــا يســـــر
تتابعـــت الخطـــوب علـــى بـــلادي فواحـــــــدة لواحـــــــدة تجـــــر

هذا الشعر يمكن ان ينطوي ضمن تسابيح المتصوفة وما. ترنموا به ضمن عشقهم الإلهي.. والجواهري لم يستسلم أمام محبوبه والرضا بأذاه حسب بل يبكي مشاركاً إياه نوائبه ومتأسياً بما حل به من كوارث ساسية ينفطر لها القلب:(٤)

بكيـــت ومـــا عـــل نفســـي ولكـــن علـــى وطـــن مضـــام مســـتهان
علـــى وطـــن عجيـــف لـــيس يقـــوى علـــى نـــوب مسلســـلة سمـــان
حيـــاتي للعـــراق فـــدى ووقـــف علـــى وطـــني ومصـــلحه كيـــاني
تظـــن زعـــانف والظـــن إثـــم بـــأني لا أرامـــي مـــن رمـــاني

ولم تكن عائلة الجواهري بمنأى عن عذابات هذا الحب حتى قال مخاطباً زوجه (أمونه) بهذا البيان الساحر: (٥)

ســـرنا علـــى الشـــوك يـــدمينا ونألفـــه وفي مفـــــاوز ترمينـــــا ونلتصـــــق
كنـــا نـــرى الجمـــر مشـــبوبا ونحـــترق ومغـــرس الرجـــل ملغومـــا ونخـــترق

ومهما بلغت الجراح من عمق وما على أهدابها من نصال وسهام من لئام وهوام فأن الجواهري لم يضعف حبه أو ينقصه بل يصدح بذاك الحب للعراق مشوقاً له وهو يمنى النفس بالعودة إليه ليسير في دروبه التي تخضبت بدمائه: (٦)

عـــود إليـــك بأقـــدام موطـــأة علـــى دروب جراحـــي فوقهـــا اثـــري
إن الـــدياجير لا تجلـــى غياهبهـــا إلا إذا الـــتم شمـــل الانجـــم الزهـــر

للعراق سحر لم يستطعْ الجواهري مقاومته على الرغم من اذاه (أذى حكامه) بمآنس العيش والبهجة في الكثير من عواصم العالم ومدنه من براغ إلى دمشق فبيروت والقاهرة وغيرها. فحب العراق أقوى من كل المغيرات هذا الحب الذي ظل يتغنى به الجواهري ويحدو طوال عمر المديد كله. يتغنى بالعراق كل العراق أرضه وانهاره دجلته وفراته واهله رجاله ونساءه اعلامه ادباءه وشهداءه واحراره العراق يبدأ في نظر الجواهري من حيث يدق القلب وتتناغم اجراس القصيدة ويرتجف القلم وتلتهب الشفاه وتتورد الخدود وتتفتح الورود وينتهي وقد لا ينتهي إذ يدلهم الخطب والدنى عبس ووجه السماء مكفهر.. العراق يمتد بل يمتد صوته في ترانيهم الشعراء في مجالس السمر والأدب والدرس إلى نقيق الضفادع على ضفاف دجلة والفرات. العراق لوحة ابدع الخلاق برسمها وتلوينها وكما الح الجواهري إلى ذلك إلى قوله: (٧)

وكـــأن خـــلاق الطبيعـــة شـــاعر نظـــم الريـــاض قصـــائدا وقـــوافي

وهنا في هذه الدراسة الأدبية تلتقي قصائد وقوافي الخلاق المبدع المصور الجميل الله (سبحانه وتعالى) بقصائد وقوافي الشاعر الرسام بالكلمات محمد مهدي الجواهري الذي استجلى صورة العراق الطبيعية (والبشرية) وحملها على نغم شعري محبب طروب (ينبعث حينا من جرح دام وحينا من فم بسام)(٨) والشاعر في إبداعه للوحة العراق الطبيعية كان مدركا ما لدجلة والفرات من منزلة في نفوس العراقيين وما تختزناه من رؤى وجمال. إن علاقة الشاعر بدجلة أو الفرات أو بغداد أو أية بقعة من ارض العراق وقعت عليها عينه هي علاقة محب قد يمنى أحياناً بهجر أو جفوه أو خصام أو داجية تعصف بكل الرؤى والخيالات المؤنسة.. فقصائد الجواهري في محبوباته انفة الذكر أو في محبوبه الأكبر (العراق) تخضع لحالته النفسية ولطبيعة الوضع السياسي في البلاد وتصرفات الحاكم ونسبة عدد الراقصين كالقردة من (أهل المدينة) له (٩) وقد الح الناقد جبرا إبراهيم جبرا إلى ذلك بوصفه ما ينشأ بين الجواهري وعراقه المحبوب من خصام انه (خصام محبين)(١٠) غير انه لم ين خصاما عاطفيا ينشأ عادة بين المحبين ويعرفه أهل العشق كما يعلمنا ابن حزم الظاهري في طوق الحمامة(١١) بل ان مدار خصومة الجواهري و(عرقه) ومنشأ خلافه هو الحاكم وموقف أهل المدينة منه وموقف كل من الحاكم والشاعر منهم أيضا. فالجواهري والحاكم يتقاسمان المدينة الجواهري يطمح لان تتوقد في المدينة قناديل الحب وتأتلق شموع الحرية وينتشر نور الشمس وان تزاح الغيوم وينزوي الظلام ويخذل الظلم والحاكم عكس ذلك وبين الخصمين (الحاكم والشاعر) جمهور يتنافس الاثنان على كسبه فالحاكم قوى بأمواله وازلامه وهراواته وسجونه وأحكامه العرفية واعلامه والشاعر متقحم عزوف انوف لا يجاري ولا يماري ولا يملك سوى شسع نعل وكلمات قوتها الحب والغضب ونفس يحملها على خطر.. واكثر ما يغضب الشاعر هو رقص أهل المدينة كالقردة أو نومهم على نغم البعوض وانقلاب المقاييس واختلاط الأمر واختناق الجو وتزايد إعداد المنافقين والمستأسدين من الثعالب والأرانب والكلاب كلاب السلطة. غير ان شاعرنا على قتامة الوضع وجهامة الجو وعتمته لم يستكن أو يلف بل نراه يبحث والاشواك تحت قدميه والجمر يلهب شفتيه عن نوافذ للامل يتسرب منها الضوء والفلق والاصباح فيزرع في اعماق الظلمة شموعا للرجال ويوقدها كي تنير له دربه ودروب السائرين نحو الشمس والحرية فكان الجواهري يلوذ بمصادر القوة لتمكنه من الثبات في مواجهة الداجيات فكان له أحرار العراق ودماء شهدائه وأقلام أدبائه فضلاً عن (قفص العظام) أمه التي خاطبها: (١٢)

فيا شمسي إذا غامت حياتي ... نشدتك ضارعا إلا تغامي
ويا مكفوفة عن كل ضر ... نشدتك ان تكفي عن ملامي
فليس يطيق سهما مثل هذا ... فؤادي وهو مرتكز السهام
لقد كنت الحسام على ظروف ... حملت بها على حد الحسام
وقد كنت الحرون على هجين ... يحاول ان يسير من زمامي
وليس رضيع ثديك بالمجاري ... وليس ربيب حجرك بالمضام

وعلى مقربة من (قفص العظام) المهاب أو (مكفوفة الضر) أم الجواهري كانت هناك ضحوكة الثغر وصفية الطبع (أمونه) زوج الشاعر ورفيقة دربه الموحش الوقور التي خاطبها: (١٣)

يا حلوة المجتبى والنفس غائمة ... والأمر مختلط والجو مختنق
ويا ضحوكة الثغر والدنى عبس ... وصفية طبع والمنى رنق
إني وعينيك لا أمنى بداجية ... إلا وأنت لي الإصباح والفلق

لقد تقاسمت أمونه مشقات درب الجواهري ونالت ما نالت من آلامه ومواجع بلواه فلم تكن (امونة) نافذة للامل حسب بل هي العوان على الشدائد بضحكة ثغر أو لمسة لطف أو كلمة حب يخضوضر بها الغصن المهدد بالجفاف أو الذبول.. وفي هذه القافية يبوح الجواهري بأحد أسراره ويعترف بفضل أمونه عليه وقد منعته من الانزلاق إلى مهاوي النمرق الذي فرشته السلطة وكم كان الجواهري يخشى ذلك الانزلاق على رجاحة عقله وثقته بنفسه ولهذا قدمه ظلت راسخة على ارض المواجهة والمعارضة والمخاصمة مع حاكم العراق وبعض أهله وله في هذا الإصرار على المواصلة (والعناد) اكثر من معوان خلا (قفص العظام) و(حلوة المجتلى) له في أخيه جعفر الذي صب على مسمعه تلك القصيدة الخالدة: (١٤)

تعلم أم أنت لا تعلم ... بأن جراح الضحايا فم
فم ليس كالمدعى قوله ... وليس كآخر يسترحم
أتعلم ان رقاب الطغاة ... أثقلها الغنم والمأثم

وظل يسكل الجواهري هذا السحر حتى اضحى الجراح فما فصيحا بليغا على (عجمته) لم يبلغ شأوه فم فم يصيح على المدقعين الجياع ويهتف بالمهطعين والرعاع وبالأنكد والاشأم والمعدم (اهينوا لئامكم تكرموا) والجواهري يطمئن أولئك جميعا وهم ذخيرته الشعبية بأن الحاكم ولان تمادى لا يستطيع خنق الضوء لان دماء الضحايا سوف تنير أفق الحياة. كما قال: (١٥)

أرى افقا بنجيع الدماء ... تنور اختفت الانجم
وكفا تمد وراء الحجاب ... فترسم في الافق ما ترسم

ومع اختناق الجو واحتقان الأوضاع فان الأمل بالغد المشرق والمستقبل الزاهر لم يفارق جنان الجواهري فكان يستل سنا ذلك الغد من فتحة جرح طاهر أو ضحكة ثغر ساحر:

فيا لك من مبسم عابس ... ثغور الأماني به تبسم

ومن جعفر إلى قيس الالوسي الذي صار لمحالسنا الفجر الجديد ونفح يأترج به العراق على (عفونه وضعه السياسي) حيث تخترم اجساد المتظاهرين بالرصاص: (١٦)

يـــا قـــيس يـــا لمـــح السنـــا يـــا قـــيس يـــا نفـــح الطيـــوب
يـــا قـــيس يـــا همـــس الحبيـــب يـــذوب في سمـــع الحبيـــب

ومن جعفر وقيس شهداء الوثية إلى سيد الشهداء حيث لجأ إليه وهو الضامئ الصيدان ينهل من معينه إلى الحسين (ع) إذ وجد الجواهري في الحسين رمزا للثورة على الطغيان ومنارا يضيء درب الطامحين العظام السائرين نحو عالم بلا ضيم أو خنوع.. وليس للشاعر وهؤلاء غير (الحسين) ونهجه النير المهيع: (١٧)

فـــداك لمثـــواك مـــن مضـــجع تنـــــور بـــــالأبلج الأروع
بـــأعبق مـــن نفحـــات الجنـــا ن روحـــا ومـــن مســـكها اضـــوع
وحزنـــا عليـــك بحـــبس النفـــوس علـــى نهجـــك الـــنير المهيـــع
وعفـــرت خـــدي بحيـــث اســـترا ح خـــد تفـــرى ولم يضـــرع
وحيـــث ســـنابك خيـــل الطغـــا ة جالـــت عليـــه ولم يخشـــع
كـــأن يـــدا مـــن وراء الضريـــ ـــح حمـــراء (مبتـــورة الإصـــبع)
تمـــد إلى عـــالم بـــالخنو ع والضـــيم ذي شـــرق مـــترع
لتبـــدل منـــه جـــديب الضـــمير آخـــر معشوشـــب ممـــرع
تعاليـــت مـــن صـــاعق يلتظـــي فـــأن تـــدج داجيـــة يلمـــع
فيهـــا أيهـــا الـــوتر في الخالديـــ ن فـــذا إلى الآن لم يشـــفع

فالجواهري الذي يواجه الظلم والظلام ويدرك قساوة الظروف السياسية التي يمر بها هو وبلاده لم يجد لتلك المواجهة إلا ان يستعين بأعظم رموز التضحية في التاريخ العربي الإسلامي ولعله وجد في شخصية (الحسين) انموذج البطل الذي افتقر إليه الواقع منذ قرون فالجواهري حين تتلبد الغيوم وتضطرب الرؤيا وتصاب بعض العيون بالرمد يبحث عمن ينير ويدعو ويحرض ويوقظ النيام بلسانه أو سيفه وهل في تاريخ العراق من اعتلى صهوة الكلمة الزاجرة للطغاة غير (الحسين)*؟. فالحسين تحول إلى رمز سياسي وشعري يطفح بدلالات ومعان عميقة قد تتسع لو اردف الشاعر تلك القصيدة بثانية أو ثالثة أو اكثر. وهكذا فالشاعر يبدو ليس وحيدا في صراعه مع حاكم المدينة إذ كان يستمد القدرة على مواصلة الصراع عبر عهود سياسية استبدادية متعاقبة من تلك الملهمات أو الرموز الإنسانية الاثيرة لديه وقد توزعت بين الام والزوجة والاخ والامام الرمز. وفي كل ما تقدم نرى ان الجواهري قد وظف (الضوء) ومرادفاته ومشتقاته ومصادره رمزا يختزن دلالات سياسية وفكرية واسعة منها معاني الثقة بالنفس وبالمستقبل والامل بالغد المشرق السعيد.. ولهذا جاءت الألفاظ والعبارات (الضوئية) منسابة في عروق قصائد تحمل تباشير الصبح والفجر الجديد والنهار.. ومن ضوئيات الجواهري التي تكررت وفاضت على اجفان قصيدة (الانجم الزهر) و(تجلى غياهبها) و(ياشمسي) و(الإصباح والفلق) و(جمال الضحوة) و(افقا تنور) و(الابلج الأروع) و(النير المهيع) و(يلمح) و(لمح السنا) وغيرها. وفي مقابل تلك الوضئيات من

المفردات والعبارات جاء بمعجمه الداجي الذي عبر عن سوء الأوضاع وقساوتها مثل (الدنى عبس) (تدج الداجية) (اطبق دجى) وغيرها. وهذه الثنائية المتضادة (المضيء والمظلم) قد غطت بيادر شعر الجواهري كله ولعل هذه الحقيقة الفنية جاءت لتجسد ما يمور في نفس الجواهري من اتجاهات متصارعة متناقضة عزز واقع عراقي يحمل المتناقضات على اكثر من صعيد بما في ذلك الطبيعة العراقية (قيظها الحار) و(انثلاج ليلها) و(شتوتها) شمال جبلي بارد وجنوب سهلي رسوبي حار وهذا ما رسمته ريشة الجواهري المبدعة والتقطته عدسته الشعرية الحساسة. وكانت دجلة المعلم الطبيعي الأثير لدى شاعرنا. لقد تعهد الجواهري بدجلة يسيقها على مهل(١٨) أشعاره واشواقه بوصفها رمزا عراقيا غذته التجربة الشعرية الطويلة للشاعر مثلما هو (الرمز٩ قد اغناها فدجلة ومثلها الفرات وبغداد تظهر تحت سن يراع الجواهري في إطار ثنائية واقعية تقوم على صورتين مختلفتين هما صورة مضيئة مبهجة والاخرى معتمة مؤلمة تعكسان الواقع السياسي والاجتماعي في العراق. فدجلة في قصيدتها (يا دجلة الخير) تأتي ضمن الصورة المضيئة الأولى التي رسمها الجواهري وقد شحن في مطاويها رؤاه واحلامه واشواقه وشكاته وهواجسه مع زهوه بها وحبه لها معطرا أحد أبياتها بنبوءة شعرية مدافة بومضة صوفية آسرة، فالجواهري من خلال (دجلة) استطاع ببراعة الشاعر الحاذق ان يصوغ رمزا شعرياً ثرا ترسخ في تربة الأدب واخذ مداه من الدلالات والمعاني.. فدجلة أصبحت في شعر الجواهري ليس مجرد نهر أو مجرى لماء ومسرح قوارب ومأوى ضفادع وبساتين بل تجاوزت دجلة تلك المعاني الواقعية إلى معنى أوسع، إذ اختزنت معاني المواطنة وحب الوطن والكفاح من اجل حريته والزهو بحضارته ومجده وثقافاته في العصورة الغابرة فضلا عما يدور على مسرحه السياسي من أحداث وتطورات.. ودجلة هي معشوقة الجواهري وصديقته والشاهدة على أحداث نخرت صدور العراقيين منها انقلاب المقاييس وتسلط الهمل والجهلة على مقاليد أمور البلاد. وفي مثل تلك الأحوال ينال عشاق الحرية نصيبهم من الحيف والظلم والعسف كالجواهري الذي صدح بهذه الأغرودة(١٩) وهو بعيد عن دجلته وفراته ونجفه وكوفته وبغداده عن عراقه كله من شماله إلى جنوبه:

يا دجلة الخير يا أم البساتين ... حييت سفحك عن بعد فحييني
يا أم بغداد من ظفر وام غنج ... مشى التبغدد حتى في الدهاقين
يا أم تلك التي من (ألف ليلتها) ... للآن يعبق عطر في التلاحين

ان الربط الفني بين دجلة وبغداد يعكس حقيقة التلازم الواقعي بينهما تلك الحقيقة اليت تفيد بأن دجلة لولا بغداد لما كانت أم وان بغداد لولا دجلة ما كانت عاصمة للثقافة والأدب والفكر أو عاصمة للرشيد والمأمون عاصمة الظرف والغنج والضوء والعطر والسحر عاصمة (الشعراء والصور)، عاصمة جمعت بين كأس أبي نؤاس وصولجان الرشيد وطاس الحلاج وماجاته. الجواهري لجأ إلى دجلة حينما حزت مدية الفراق في حناياه فهي معشوقته وحافظة سره وشاهدة على عذاباته وحاضنة نبوءاته

السياسية الفكرية والشاعر على توافق تام مع دجلة لا يعنيه في دنياه سوى رضاها وان ما يشجيها يشجيه فالشجن عراقي واحد والحنق الذي اغتلى في صدر دجلة هو ذاته الذي يفيض به صدر الجواهري وقصيده. وقد نلمح -لو تأملنا- غبارا صوفيا قد تعفرت به بعض ابيات قصيدة (يا دجلة الخير) إذ انتثر عليها من أغصان شجرة العشق الإلهي هذا العشق الذي يعد الذوبان بالمحبوب والاتحاد به ومشاركته افراحه واتراحه والرضا حتى باذاه بعضا من اشعاعاته أو ثمراته كما في قوله: (٢٠)

يا دجلة الخير ما يغليك من حنق يغلي فؤادي وما يشجيك يشجيني
لعل يوما عصوفا جارفا عرما آت فترضيك عقباه وترضيني

فإذا كان البيتان قد طويا بين جناحيها لمسة صوفية نقية فإن البيت الثاني كان يحتضن بصبر نبوءة جواهرية لبابها ان الشمس لا بد ان تشرق وان جحافل الظلام سوف تهزم وان يوم حساب الطغاة ات لا محال (لا بد من صنعا وان طال السفر) وقد تحقق ذلك كله في يوم ٢٠٠٣/٤/٩ حيث تهاوى نظام الحكم الذي خاصم الشمس والشاعر والمدينة ردحا من الزمن. فهل رضيت دجلة بذلك كي يرضى الجواهري وهو في ذمة الخلود.. إلى جوار السيدة زينب (ع) والحور تطوف حوله والنور بملأ مثواه في الشام. هذا هو الجواهري يحب دجلة ويعشقها حد الهيام ويرصع هيامه بها بنبوءة سياسية قد استبطنها بلياقة حناياه وفي قصيدتها الرؤوم (يا دجلة الخير) دجلة ضاحكة حين يضحك العراق ومتجهمة حين يحدق بالعراق خطر أو شر فالجواهري يقرأ الأوضاع السياسية بل يحدد معالمها من خلال (دجلة) فالحنق والشجا والرضا والابتهاج مفردات ان فاضت على وجه دجلة إنما تعبر عن أوضاع سياسية تمر بها البلاد.

ولم تتحدد وظيفة (دجلة) بهذا المنحى الفني وانما تتعداه بكونها مصدر الهام شعري لا يمكن للجواهري ان يحدو بدونه فحينما يلتهب صدر الجواهري بالشوق للعراق ولربوعه فراه يتوجه إلى دجلة ليترنم باشعار الشوق لها فيناديها بهذا النداء المترف الجميل (يا دجلة الخير) ويرتفع الصوت مرنانا طاويا حبا اسطوريا لوطن كله الطاف وثقافة وجمال وشذا وجمر واشواك أيضا.

وطن ترنم به الجواهري وهو لا يملك منه نصيبا وقد يلتقي الجواهري مع المتنبي في الحب على ما بين محبوبي الشاعرين من فرق فالمتنبي احب شخصا هو سيف الدول أما الجواهري فقد احب بلادا هو العراق وكلاهما احبا ولقيا من عذابات حبهما ما يفزع: فان اختلفت طبيعة المحبوب لدى الشاعرين فان كلا منهما قد أحبا (محبوبه) على علاته فالمتنبي احب سيف الدولة على (علاته) بتزواته وجفواته واذعانه لدسائس خصوم المتنبي وحاسديه والجواهري احب العراق على (علاته) أيضا احبه على جمره وشوكه وتجافي أهله واستكلاب ذئابه ونباحهم عليه (٢١).

تسعون كلبا عو خلفي وفوقهم ضوء من القمر المنبوح مسكوب

وهم أنفسهم الذين يمرون على الظامئ ويتركونه وعندهم ما يروى غلته:

"ستين عاما" اساقيهم مشعشة من خالص الود، والأشواق، والقبل
ما ساءهم قرحة تشوى بها كبدي وما يسرهم كحل على المقل
حتى إذا مسني ضر واسلمني غدر (الجبان)لجرح غير مندمل
مروا (لئاما) على الظامئ وغلته وعندهم كل ما يشفي من الغلل
وغادروه (بموماة) كأنهم ليسوا ذوي ناقة منه ولا جمل

أليس من الجنون ان نحب بلدا هكذا كان أهيله؟ وإذا كانت العبقرية في بعض جوانبها جنونا فان حب الجواهري للعراق ضربا من تلك العبقرية حيث ارتقى الجواهري في حبه للعراق إلى مصاف المتصوفة وعشقهم القائم على الرضا بما يصدر عن المحبوب (كل ما يصدر من المحبوب محبوب) أو قول أحدهم:

وكل أذى في الحب منك إذا بدا جعلت له شكري مكان شكيتي

فالعراق محبوب وان جفا وحسن وان تخلى وملهم القصيد عذبا ومعذبا وبدونه لا يحلو الحداء حداء الجواهري. فالجواهري يستحضر العراق لكي يحدو ويشدو ويصدح ويترنم... والعراق حاضر عندما تستثار القريحة ويقدح زناد القافية حاضر في دجلة والفرات وفي بغداد بل في كل بقعة ظللتها شجرة الحضارة والثقافة وتدلى عليها غصن الكفاح باشواكه وعذاباته. الجواهري سكب حبه الأسطوري للعراق عبر عشرات القلائد أو القصائد (العراقيات) المضمخ منها أو المخضب. والشاعر الذي احب دجلة لم ينس الفرات فهي شقيقة دجلة وصديقتها وقد قاسمتها الهموم والقصائد والآمال فما ان ذكر الشاعر دجلة حتى سالت الفرات على يراعه قصيدة كاملة أو بيتا نادرا ففي أحشاء قصيدة أخرى يقول الجواهري (٢٢):

هو (يوم بغداد) يصافق دجلة فيها الفرات بمترع الاكواب

وفي قوله (٢٣):

ويا ملاعب أترابي بمنعطف من الفرات إلى الكوفان فالجزر

فلم تقتصر المساحة التي افردها الجواهري للفرات في رحاب شعر على ذكرى أو صورة أو إشارة عابرة بل منح (فراته) فسحة شعرية قد تضاحي (دجلة) تمتد على طول قصيدة كاملة كما في قصيدته التي اعطاها عنوانها الدال (يا فراتي) (٢٤):

يا فراتي وهل يحاكيك نهر في جمال الضحى وبدر العشي
دنست طهرك المطامع حتى لم تعد تنفع الغليل بري

ثم يعرض جانبا من جمالها فيقول:

فتخال الضياء والماء موج في رواح من جانب ومجيء

كخيـــوط مـــن فضـــة طـــوع الـــر يـــــح بـــــين الشـــــمال والشـــــرقي

والفرات هنا مضاء على الرغم من (الدنس) وليس لدى الجواهري من سلاح لمحاربة (الدنس) و(الظلام) سوى (الضوء) حتى استحال (الضوء) في شعر الجواهري رمزا للحياة والامل والكفاح وإذا كان جبر إبراهيم جبرا قد اغفل(٢٥) إحدى خصائص فن الجواهري الشعري إذ عد الرموز معدوما أو يكاد فيه فانه لم يتلفت إلى حقيقة ان الجواهري قد جانف نهج معاصريه من الشعراء للتعامل مع الرمز وتوظيفه فإذا كان شعراء القرن العشرين قد لجأوا إلى الرموز الجاهزة واجتلبوها إلى باحة شعرهم فان الجواهري هو الذي خلق أو صنع رموزه ولم يركن إلى التاريخ ليستعير منه رموزا على خصوبة التاريخ وكثرة الرموز فيه. فالجواهري شاعر يحترم اسمه ويصون منزلته الشعرية فلم يستلب رموزا جاهزة فيلبسها أثوابا شعرية جديدة لتبدو معاصرة أو جزء من تجربة شعرية وليدة البارحة: الجواهري تنكب لهذا الطريق طريق السياب والبياتي وادونيس وغيرهم من شعراء العصر الحديث واختار طريق الخلق الذاتي للرموز ومد تلك الرموز بمقومات الحياة والمواكبة لمرتقيات الفن ومتطلبات التجربة فنراه يوظف رموزه الجواهرية والعراقية بما يمنح رؤاه السياسية والفكرية افقا متفردا تتراى من خلاله صورة العراق بكل مكوناتها المتموجة فتتازر الرموز لابراز تلك الصورة واستجلائها فمن دجلة ينتقل إلى الفرات أو إلى الرافدين معا ثم إلى بغداد ومنها إلى كل الذين ضربوا لهم في حنايا روحه إطنابا أمثال أمه وزوجته ومثله الأعلى (الحسين) الثائر وقد استبطن الجواهري (عراقه) وقضيته وملامح وجهه الجميل (وغير الجميل) في تلك الرموز الشعرية العرقية كلها(٢٦):

وطـــن جميـــل وجهـــه بغـــداده ورضـــا بـــع مـــن دجلـــة معســـول
ان لاشـــــتاق الفـــــرات واهلـــــه ويـــــروقني ظـــــل عليـــــه ظليـــــل
واحـــب شـــاطئه وروعـــة ســـفحه تحنـــو علـــى الأمـــواج فيـــه نخيـــل

لوحة تكاملت عبر استحضار عناصر بنائها الفني والترميز لمضمونها الموحد بالشكل المتعدد (فالوطن الجميل) لم يكن جميلا إلا بدجلة والفرات وبغداد والناس فيه والنخيل والشاعر أسير حب هذا الوطن وطن الرافدين دجلة والفرات وهما معشوقتا الجواهري فما ان ذكر الأولى حتى اندلقت على القرطاس الثانية أو أننا أحيانا نراه يرتشف حلاوة الاثنين معا كما في قصيدة رحب فيها بالامير (غازي) يعد عودته من لندن في قوله(٢٧):

ســـــهول العـــــراق وكثبانـــــه وروح العـــــــراق وريحانـــــــه
ودجلـــــة خمـــــرا وشـــــهدا تســـــيل وزهـــــو الفـــــرات وطغيانـــــه
وصفصـــــافة وظـــــلال النخيـــــل علـــــى ضـــــفتيه ورمانـــــه

فدجلة والفرات لم يفترقا فهما شقيقتان تتناغمان على غصن واحد من هانية الجواهري تلك.

والجواهري الذي عشق العراق ورافديه قد قسم قلبه وقصيده بين النهرين المعشوقين كما يقسم السحاب على الأغصان أمطاره وغيوثه. وقد اسماهما بالفراتين مغلبا اسم الفرات على اختها دجلة كما غلب العرب اسم القمر على أخته الشمس وقالوا (القمرين). والجواهري كلما ناى عن دجلة ازداد شوقا إليها وقد يفزع حين يرى في عيونها آثار ضر أو غمامة اسى فكيف به وقد أصبحت دجلة في أواخر أربعينيات القرن العشرين في محنة حقيقية إذ صوبت نحوها اصابع الاتهام بما تضمر لبغداد من شرحين حاقا بها خطر الغرق... لقد عاد الجواهري (لدجلة الخير) وهل له إلا يعود؟ ولكن هذه المرة ليدافع عنها ويبعد عن نحرها سهام الرماة وهم رماة سوء كما نراهم في قول شوقي:

إذا كان الرماة رماة سوء احلوا غير مرماها السهام

فالجوهري تصدى برائية رائعة ووقف دون دجلة يرصع جيدها بهذا العقد الجميل (وفي عنق الحسناء يستحسن العقد) ومن لآلىء ذلك العقد الانيق قوله:

أحقا ان (أم الخير) منها بعاصمة الرشيد أحاط شر

فالجواهري لا يصدق ان تتحول دجلة من أم للخير إلى أم (للشر) وهو يدحض تلك الفرية ويسوغ هيجانها بلباقة المحامي الحصيف.

ودجلة حرة ضيمت فجاشت ويأبى الضيم والإذلال حر

فعين الرضا ع دجلة قد قلبت الصورة تماماً... فجيشان دجلة هو رد طبيعي على ما تواجه أو واجهت من عسف وهذا شأن كل حر لا ينام على ضيم... ويذهب الجواهري بعيداً في دفاعه عن دجلته ويدفع عنها مما لا يليق بها من تهم.. فقد كانت جزء من صورة شعرية لبغداد(٢٨):

بدت خودا لها الأغصان شعر ودجلة ريقها والسفح ثغرا
على بغداد ما بقيت سلام يضوع كما ذكا للورد نشر
سمت تزهو على السفحين منها قصور ملئوها زهو وكبر
سكرت وما سقيت بغير ماء ودجلة ماؤها عسل وخمر
وقفت عليه وقفة مستطير من الاحزان ملء حشاه ذعر
وللامواج من حنق نشيش كما يغلي على النيران قدر
ودجلةٌ كالسجين بغى فرارا وازبد حيث اعوزه المفر

والقارئ قد لا يدرك مديات حب الجواهري لدجلة ما لم يطلع على مقال لكاتب عربي عنوانه (ثورة دجلة) نشرته مجلة الرسالة للزيات عام ١٩٣٧(٢٩).

سيجد القارئ آنذاك الفرق بين عراقي كتب عن دجلة وعربي يكتب عنها فشتان بين القلمين وان كان الأول شاعراً والثاني ناثراً.. وإذا استبعدت في هذا المقام الموازنة بين لغة الشعر ولغة النثر وما بينهما من فروق فاني اركن إلى أوصاف الاثنين لدجلة فإذا كان وصف دجلة على يراع الجواهري مفعمة بالحب والامل والحنو فان ما جاءت به مقالة الطنطاوي من أوصاف لدجلة جعلت هذا (النهر العظيم) مرعبا لا يقل خطورة عن وحش مفترس (فام الخير) (الحرة) و(المضامة) و(السجين) و(الريق) والتي ماؤها (عسل وخمر) وغيرها من أوصاف في قصيدة الجواهري قد استحالت في مقالة الطنطاوي إلى (نمر يقفز ويثب) أو إلى (مجنون اهوج) (يقتل أمه) وغيرها من الأوصاف التي جادت بها قريحة الكاتب النثرية وعلى ما في المقال من رقي في فن الصياغة والتصبيغ اللفظي غير انه خدشت ثوب دجلة المزركش القشيب. الثوب الذي حلكته انامل الخلاق المصور العظيم واعادة رسمه الشاعر المبدع في لغة تزخر بالحب والضوء والامل رغم الدجى والردى والخطر. يبدو ان الجواهري الذي تعلق بدجلة رمزا ونهرا ورؤى لم يدع الفرات تداري حيرتها أو عتبها عليه فسرعان ما تسمعه ينشد للنهرين مفتخراً بهما (٣٠):

هلم لشطئان الفراتين واستمع أهازيجها تستطرف المعجز المبدع
وجدد لنا عهد المعري انه قضى وهوى بغداد يلذعه لذاعا

ومن فرط عناية الجواهري برموزه الشعرية الطبيعية التي تنامت على امتداد عمره الطويل ومديات القصيدة المتدفق طوال القرن الثاني قد أخذت تلك الرموز تتداخل وتتداعى متكاملة في أحشاء النسيج الفني الجواهري. فبغداد تستدعي دجلة وهذه توقظ الفرات. ففي وصفه لبغداد المهددة بالغرق قد تألقت دجلة -كما رأينا- على الرغم مما هي فيه. فالجواهري لم يجاف دجلة أو حتى ان يزعجها بكلمة. لقد ظلت دجلة معشوقته المدللة تنام على هدهدة القوافي وتستيقظ على أجراس الشوق والدل والغزل في شعره العراقي الرقيق:

ودجلة تمشي على هونها وتمشي رخاء عليها الصبا

امواج تتهادى ونسائم الصبا تماشيها وقافية في البيت تسري كما يسري الماء في ساقية طروب. ان هذا الترف الموسيقي كله قد اعد لدجلة. وتتكرر دجلة النهر والرمز جنب في شرايين القصيدة الجواهرية وتنساب نسغا مميزا عبقا، وبالفرات يتلون هذا النسغ ليستجيب لمتغيرات الوضع السياسي للعراق والنفسي للشاعر. إن ارتداء دجلة والفرات ثوب الرمز في حرم قصيدة الجواهري قد نأى بهما على حياتهما الواقعية بوصفيهما نهرين من ماء وطين وضفاف غير ان صلتهما بتلك الواقعية لم تنعدم فيبقى يشدهما إلى (نهريتهما) خيط شفيف قد ينقطع في لحظة إبداع ما. ولهذا فدجلة (أم الخير) و(أم بغداد) (والتي ماؤها عسل وخمر) وكذلك الفرات التي يحنو النخيل على امواجها وقد نادها الشاعر (يا فراتي) قد تتغير صورتاهما ويوظفان رمزيا للتعبير عما طرأ على

الأوضاع السياسية في البلاد من تطور قد عكر صفوها. يتمثل ذلك بحملات الإرهاب ضد القوى الوطنية وابناء الشعب العراقي كما في قوله(٣٢):

الفـــــرات العـــــذب لوثـــــه انـــــه بالـــــذل مقطـــــوب
ومشـــــى في دجلـــــة خنـــــث لم تعـــــوده الرعابيـــــب

وهكذا تبدو الصور المقابلة الأخرى (المعتمة) أو (المؤلمة) تظهر على سطح القصيدة بعد ان اعد للقصيدة أدوات بنائها الفني (الرمز). والخنث الذي وسم به دجلة أو اللوث الذي رنق صفو وعذوبة الفرات هي ألفاظ موحية بما اعترى البلاد من اضطراب وفوضى وانقلاب في المقاييس.. فاللوث هو لوث فكري والخنث هو خنث سياسي يحمل دلالة التراجع والاستسلام أو الانهيار أو حتى يعني (الرقص كالقردة) على إيقاع طبلة التخاذل ومزمار النفاق للسلطان وهذا الخنث هو بعيد جداً عن ذلك الحنث الانثوي المثير الفاتن الذي نعهده في الرعابيب. وما دام الجواهري هو الذي منح (فراته) و(دجلته) طاقة الترميز فانه كان يدرك مديات تلك الطاقة فاخذ يوظفها فنياً انى شاء وهي طوع بنانه كما في قوله(٣٣):

لا تحســـــبوا مـــــاء الفـــــرات كعهـــــدكم فلقـــــد اجـــــن
حســـــد الزمـــــان لياليـــــا سمـــــح الوصـــــال بهـــــا فضـــــن

وهكذا تغام السماء و(يجن ماء الفرات) وتضن الليالي بالوصال وتصبح المدينة بلا مطر كمدينة السياب* فان الجواهري يفتح عينه اكثر عسى ان يرى ما لا تراه عيون أهل المدينة ويلمح نجما بعيدا تكتحل عيناه بخصلة من سنا ذلك النجم البعيد. وقد تنطوي تحت حالة (عندما الدنيا تغام) معان ودلالات كثيرة منها ان الحريات قد خنقت والسجون قد ملئت والمقاييس انقلبت وان الحاكم قد بلغ من الحماقة مداها فعطل الدستور واغلق الصحف أعلن الأحكام العرفية وغير ذلك من علامات الحالة السياسية المغامة ومع رموزه الشعرية المستلة من معجم الطبيعة. كان الجواهري يستعين بالرموز البشرية.. فكان يقرا الأحوال العامة للبلاد في عيون أهلها ووجوهها:

علـــت الوجـــودة الواضـــحات كآبـــة ومحـــا الـــذبول نضـــارة الأوراد

فالكآبة التي زحفت على الوجوه والذبول الذي مشى لينهش نضارة الورود إنما هما دالان لفظيان تجاوزا حدود معنيهما المعجميين إلى معان أوسع وقد لامستهما رمزية رقيقة تسللت عبر منافذ انتشرت على ضفاف دجلة والفرات رمزين ونهرين. وفي حضن الرافدين تتألق بغداد بوصفها إحدى معالم الطبيعة العراقية وقد شغلت الشعر والشعراء بها وفي مقدمتهم شاعرنا الجواهري. فقد لمعت بغداد بشعر الجواهري مدينة للمجد والثقافة والكفاح والسلام والجمال والشعر وقد زاحمت امها دجلة وخالتها الفرات في كثير روائع الجواهري، لقد رصع الجواهري عقوده الشعرية بمآنس بغداد وعطرها بأريج (التبغدد) حتى ارتدت بغداد في شعر الجواهري ثوبين أولهما زاه قشيب مهاب

وثانيهما باك دام معاب، فبغداد لدى الجواهري بغدادن بغداد الاحرر والثوار والشعراء والفقراء وبغداد الطغاة والظالمين والسفهاء ومن طريق صورتها المشرقة قوله(٣٤):

آه مـــا ابـــدع (بغـــداد) واحلاهـــا علـــى ضـــوء الصـــباح
غسـلت كـف السـنا كـل الجراحـات بهـا حتـى جراحـي .

وفي بائية عذبة يخاطب الشاعر بها الزعيم عبد الكريم قاسم ويدعوه ان يعيد لبغداد مجدها(٣٥):

اعـد مجـد بغـداد ومجـدك اغلـب وجـدد لهـا عهـدا وعهـدك أطيـب
هنـا انسـابت الـدنيا وراحـت عصـارة مـن الفكـر في كـأس مـن الضـاد تشـرب
هنـا اسـتن إيمـان وفـاض تسـامح وقـرت حزازاتـواودا تعصـب
أبـا كـل حـر أبـا الشـعب وحـده ان احتضـن الأحـرار مـن أمـة أب
اعـد مجـد بغـداد تعـد جـد أمـة بـه الكـون يزهـى والحضـارات تعجـب

هذه بغداد في رحاب بائية الجواهري وقد استجمع فيا خصال العواصم العظيمة وامجاد الأمم الحرة.. متغنيا بالقيم والمثل الإنسانية العليا كالإيمان والتسامح ونبذ التعصب والحزازات ساكبا عصارة فكره في كؤوس من الضاد مترعة قدمها لبغداد. وفي قصيدة أخرى أهداها درتين لتضيء صدرها الرحب فقال لها(٣٦):

إليـك يـا بغـداد عقـد تناسـق لؤلـؤ فيـه ودر
بيـان جـاش فيـك فجـاء عفـوا وحسـن رق منـك فـرق شـعر

فرقة شعر الجواهري تأتي من رقة بغداد وحسنها الفاتن.. غير ان صورة بغداد البهجة لم تسد ولم تكن الصورة الوحيدة لها بل كانت إلى جوارها صورة أخرى تقابلها وتصطرع معها.

فبغداد الحسن والجمال والأحرار والمجد وكؤوس الضاد تغالب بغداد القبح والسفهاء بغداد الحاكم الظالم والمستبد الجاهل الذي قلب المقاييس واساء للذوق والفكر والفطرة كما في قوله(٣٧):

كـم ببغـداد الاعيـب واسـاطير اعاجيـب
خزيـت بغـداد مـن بلـد كـل شـيء فيـه مقلـوب
فلـق الإصـباح غربيـب ونعيـق البـوم تشـبيب
والخنـا غـنم ومحمـدة والنهـي جلـد وتعـديب
وبيـوت الفسـق عـامرة وعـرين الليـث منهـوب
كـم ببغـداد الاعيـب اضـاحيك اخاشـيب

فبغداد الرشيد والحلاج والمستنصر وبغداد أبي نؤاس وشهرزاد والف ليلة وليلة هي ذاتها بغداد العضاريط ينزلها الجواهري إلى الحضيض والجواهري في رسمه لهاتين الصورتين

المتقابلتين المتنافرتين لبغداد المحلاة بالاحرار والمعتمة بالاشرار فصورة (كصحوة الضحى) وأخرى (كظلمة الدجى) تقابلها إنما جسد واقعا عراقيا احتدم فيه الصراع وتناحرت القوى والمصالح والأفكار حتى فاضت على سطح الكلمة الشعرية عبر أداء فني مرموز يقوم على تجربة شعرية طويلة كانت بغداد بصورتيها إحدى مكوناتها. وانسجاما مع موحيات الرموز المتناقضة تأتي الصور متلاحقة تبثها قصائد الجواهري لتشكل لوحة الوطن الملونة(٣٨).

يا صورة الوطن المهديك معرضه ... اشجى ابهج ما فيه من الصور
غيومه وانبلاج الشمس والقمر ... وقيظه وانثلاج الليل والسحر
وما يثير الدم الغافي بتربته ... من صحوة الحقد أو من غفوة الحذر
والعبقريات لم تنهض ولم تثر ... والتضحيات توالي من دم هدر
والمنذرين نفوساً كلها ثمر ... والناهزين لما يجنى من الثمر
والزندقات وايمان التقاة وما ... اجلت مذاهب في زحمة الفكر
يا صورة الوطن انصبت معالمها ... في معالم وما ابقت يد العصر

فالتلوين والتموج في بنية المجتمع العراقي وفي طبيعته قد اخذا من عناية القصيدة الجواهرية الكثير وانعكسا على بنائها. والجواهري هو الجواهري وان تلونت رؤاه وتغيرت الصورة وأصباغها في عينيه.. يبقى ربيط الجأش ثابت الجنان واثقا بالغد وهو في أحلك الظروف. فحينما يحلو لك الليل وتتجهم السماء وتكفهر الأرض ويتكدر الرافدان ويطبق الدجى وبغداد تخزى فان للجواهري عدته لمواجهة الظلام فله من القناديل والمصابيح والشموع والشموس والاقمار وينابيع النور والسنا ما يبدد الغياهب ويطعن باسنة الضوء دروع الظلام فالجواهري يستمد القوة ويستبص الأمل من شمسه (قفص العظام) ومن حلوة المجتلى (أمونه) إلى أم بغداد أو أم البساتين أو أم الخير دجلة أو من فراته حتى يصل به الأمر ان يطوف على ضريح (الأبلج الأروع) لائذا بجعفر وقيس حتى يصل إلى التي يناديها (سامرينا)... والجواهري يصارع الغسق من اجل فجر ارحبي ينشر انواره على العراق يبدد الدياجير والدجى:

لوعودون فجراً ارحيبا ... نشق به الغياهب من دجانا(٣٩)

وبهذه الومضات المتفائلة يلهم الشاعر العراقيين ويغرس الثقة في نفوسهم التي ارهقها العسف واذلها الإرهاب وافزعتها اشباح الخوف من السجن والسجان.

المحور الثاني

أهل العراق في شعر الجواهري

والجواهري في تفاؤله قد توجه إلى العراقيين كلهم وهو الذي قسم حبه بينهم -عدا الظالمين- فقد تغنى بالطفولة وانشد للشباب وترنم بالطلبة والمرأة واستنهض الشعب باحراره ومثقفيه وادبائه والنائمين من جياعه وهاجم طغاته وثعالبه وجلاديه وكلابه وسخر بهم وتهكم على زعانفه وعضاريطه. ومما طرزه للناشئة والطفولة قوله(٤٠):

لنا فيك يا نشء العراق رغائب ... ايعسف فيها دهرنا أم يمانع
ستأتيك يا طفل العراق قصائدي ... وتعرف فحواهن إذ أنت يافع
بني الوطن المستلفت العين حسنه ... أبا طحه فينانه والمتالع

وللمراة نصيبها الوافر من عقود الجواهري ففي مناسبة احتفال المرأة العراقية بعيدها كانت للجواهري هذه التحية لهن (٤١):

حييتهن بعيدهن ... من بيضهن وسودهن
وحمدت شعري ان يسر ... ح قلائدا لعقودهنه
نغم القصيدة قبسته ... من نغمة لوليدهن
كم بسمة لي لم تكن ... لولا افترار نضيدهن

ومن الطفولة إلى المرأة ومنها إلى الشباب والطلبة (٤٢):

يا شباب الغد هذا وطن ... كله فضل والطاف ومن
ليس تدري من خفايا سحره ... غير اطياف واحلام تظن
عجب هذا الثرى نألفه ... والى اتفه ما فيه نحن
كل ما عندك منه انه ... كوكب يبزغ أو ليل يجن
وهو إذ تستوبى الأرض شذا ... وهو إذ يقبح كل الكون حسن
وهو حتى ان تجافى عنك خذن ... وهو حتى إذا تخلّى عنك حصن

ملأ الجواهري نونيته بالعراق فقد سكب في أبياتها حب العراق كما يسكب الرحيق في الاقداح.. فجاء العراق بلفظ (وطن) ومن خلال ضمير الغائب في (سحره) و(منه) وفي الضمير (هو) الذي تكرر أربع مرات كما انطوى (العراق) ضميراً مستترا في الأفعال (تجافى) و(تخلى) وبهذا المنحى من التناول للعراق في شعر الجواهري تحول (العراق) إلى موضوع شعري أثير لدى الجواهري ومجال خصب للإبداع.. حتى أننا نرى العراق حاضراً في اغلب قصائد الشاعر بغض النظر عن موضوعها أو مناسبتها أو الدافع لنظمها فأنى حل الجواهري حل العراق معه وآية قصيدة ينظمها الجواهري يكون العراق جالساً في أحد أبياتها فمن النادر ان تعثر على قصيدة للجواهري لم يكن العراق صدى

فيها.. بومضة أو شذرة أو إشارة أو نفحة أو كلمة قد تعفرت لتراب العراق أو اغتسلت بماء رافديه وإذا نحينا جانباً تلك الأغصان من شجرة العراق البشرية.. الناشئة والطلبة والمرأة والاطفال لقد خص الجواهري كل منها بقصيدة أو بأكثر فإننا نعود الآن إلى تلك الشخصيات العراقية التي حفل بها قصيد الجواهري وتوجه إليها أما مادحا أو مهنئا أو راثيا أو مطارحا أو معارضا أو هاجيا متهكما ساخراً.. وتتوزع تلك الشخصيات بين الشعراء والساسة والادباء والاكاديميين والشهداء (أبا عد واقارب) فمن أقاربه كانت أمه وام فراته وامونة واخوه جعفر وعمه الشيخ باقر الجواهري وغيرهم ومن الشعراء خص المتنبي والشبيبي والرصافي والشرقي والنقدي ومحمد صالح بحر العلوم أما الساسة فكان الملك فيصل الأول والامير غازي والزعيم عبد الكريم قاسم وجعفر أبو التمن وعبد المحسن السعدون ومهدي الخالصي وجلال الطالباني والبرزاني ومن الأكاديميين.. الوتري والمخزومي ومحمد مجيد السعيد. لقد أعطى الجواهري للشخصية العراقية مساحة واسعة في ديوانه وقد تنوعت تلك الشخصيات لتؤكد تنوع روابط الجواهري وسعت امتداداته في نسيج المجتمع العراقي. فمن الملك والزعيم إلى الأديب والطبيب ومنهما إلى الطالب والطفل والمرأة والعامل والفلاح والراعي إلى صاحبة بيت الشعر أم عوف. وفي كل ما قال الجواهري في هؤلاء العراقيين من شعر كان العراق حاضرا وكانت قضيته والثقة بمستقبله الزاهر تترقرق عبر مسامات الحروف وعلى ضفاف نهر الحب للعراق. لقد كان الجواهري يغرس شجيرات المنى والود الصادق لاحبابه من العراقيين ففي قصيدته (خل النديم) يطفح هذا الحب بقوله(٤٣):

خل النديم فما يكون ريقه ... وأدر لماك إذا غفا ابريقه
لم يصبني كأس النديم وخمره ... لو دام لي ثغر الحبيب وريقه
حمل فؤادي ما تشاء يطق به ... إلا جفاك وذاك لست اطيقه
لي فيك صوغ للبلاغة لو خلا ... جيد الفتاة لزانها منسوقه

وفي قصيدة عارض بها الشاعر محمد رضا الشبيبي يستعطف الأحبة ويشكو الهجر ويدعو للوصال(٤٤):

عيشنا غض وميدان الصبا ... فيه مجرى للتصابي ومجال
يا احبائي وكم من عثرة ... سلفت ما بال هذه لا تقال
لا أمل العيش ما شئتم فكونوا ... لسوى حبكم يحلو الملال
إنها انفس لم تخلق سدى ... ورقيقات قلوب لا جبال

ويفيض هذا الحب حتى تتضمخ بأريجه موشحة كوفية عراقية جواهرية منغمة على أصداء وتر أندلسي عذب وقد اخذ (الأحبة) عنوانها مكونة من ستة ابيات بمطلعها (وهي تامة) وادوارها واغصانها واسناطها واقفالها وخرجتها.. معارضا بها لسان الدين بن الخطيب.

جادك الغيث إذا الغيث همى ... يا زمان الوصل بالاندلس

لم يكـــن وصـــلك إلا حلمـــا بـــالكرى أو خلســـة المخـــتلس

جاء فيها(٤٥):

يـــا مـــراح العـــيش في (الحـــيرة) لا زلـــت ضـــاحكا مـــن الغيـــث العمـــيم
كنـــت فينـــا للتصـــابي مـــأهلا حيـــث صـــح الجـــو واعتـــل النســـيم
ان يكـــن روض شـــبابي أمحـــلا فلقـــد يقـــنعني منـــه الشـــميم
ليســـت مـــلاك الهـــوى مـــا حرمـــا ثمـــر اللـــهو علـــى المغـــترس

وفي قصيدة اخوانية بعث بها إلى صديقه محمد علي اليعقوبي حيث غادر النجف إلى الكوفة مضطرا(٤٦):

هجـــرت الـــديار فقلـــت العفـــا لربـــــع الســـــرور وزواره
وبـــت بليـــل لفـــرط الاســـى كليـــل الضـــجيج علـــى نـــاره

ثم يقول معرضا(٤٧):

لعمـــري أســـاء إليـــك الصـــنيع زمـــان يشـــاب باكـــداره
كـذا الـدهر كـم حـاز مـن خامـل وحـــر تصـــدى لأفكـــاره

(فالزمان) و(الدهر) لفظان دالان على السلطان وقد غمز الجواهري بهما لما يفعله (الحاكم) بالعراق واحراره الذين بطيب شذاهم تأترج البلاد كما يأترج الروض بعطر ازهاره وفي تهنئة لاحد اصدقائه لمناسبة زفافه (مرزا بحر العلوم) افرغ الجواهري النضار إلى سينية بحترية الروي نؤاسية الكؤوس والخمرة(٤٨):

عـد عنـك الكـؤوس قـد طبـت نفسـا واســـقنيها مراشـــفا لـــك لعســـا

ففي هذه الخمرية الجواهرية تبدو نفس الشاعر رائقة والجو ضاحك والسماء صافية لا يخنق ذاك رنق ولا تكدر صفو تلك غيوم غير ان اللافت للنظر في هذه القصيدة إنها أرسلت لصْديق ينتمي ليت ورع وتقوى ودين وهي خمرية لا غبار على كؤوسها(٤٩):

لا تلمـــه ان هـــز للشـــعر عطفـــا ان فيـــه مـــن دوحـــة المجـــد رســـا
هـــو اصـــفى مـــن اللجـــين واوفـــى في المعـــالي مـــن الهضـــاب وأرســـى
وهـــو إن ينتســـب فمـــن أهـــل بيـــت اذهـــب الله عنـــه عـــارا ورجســـا

وفي رثاءه لـ(محمد علي الحكيم) صديقه يوجه الجواهري نقدا لاذعا لرجال الدين المزيفين(٥٠):

عـــين تســـيل دمـــا لفقـــد ســـوادها وحشـــى يـــذوب اســـى علـــى ســـودائه
رح ســـالما ودع الحيـــاة لجاهـــل وغـــروره أو عـــالم وريائـــه
الـــدين كـــل النـــاس تعـــرف حملـــه والفـــرق كـــل الفـــرق عنـــد أدائـــه

فرجل الدين الحقيقي ليس من اكثر الكلام عن الشرع والفقه والأوامر والنواهي من حلال أو حرام بل هو من يجعل تعاليم الدين ومثله موضع التطبيق.. ولعل شاعرنا الجواهري قد ضاع ذرعا بتلك الهوة بين ما يسمع وما يرى في الواقع المر والمؤسف وتلك الومضة الناقدة لجانب من جوانب حياة المجتمع العراقي قد استلها الجواهري مع انه اسف على المرثي.. فجمع بين عاطفة الحزن والأسى على الفقيد ولمسة التأمل في الحياة والالتفات إلى ما يظهر على سطحها أو يغوص في أعماقها ويسبر غورها. فالجواهري حزين لكن حزنه لم يمنعه من نقد الأوضاع السياسية والاجتماعية في البلاد وتعرية معايبها ومثالبها الجهل والرياء والانتماء الكاذب للدين. (الانتماء القولي). والجواهري كالبحر متقلب المزاج.. فهو بين اعصار وسكون بين أفراح المدح والفخر والوصف واحزان الرثاء والالم والجدب غير انه في الحالتين عاشق لم ينس معشوقه وهو (العراق) فمن (إيران) يعتلج الشوق في صدره إلى العراق فيبث ذلك الشوق في قافية رقراقة إلى صديقه الشيخ محمد رضا الذهب(٥١):

أحبابنا بين محاني العراق كلفتم قلبي مالا يطاق
العيش مر طعمه بعدكم وكيف لا والبعد مر المذاق
يكفيكم من لوعتي أنني من فارس اشتاق قطر العراق

ويظل المعزاف يداعب وتر الحب والأشواق للعراق الذي احبابه فيه في قصائد كثيرة. ففي إحدى مطارحاته مع الشاعر جعفر النقدي وقد حل الشاعر ضيفا عليه في مدينة العمارة قوله(٥٢):

مر النسيم برباكم فأحيانا فهل كذكراكم في القلب ذكرانا
ما مس إلا طهر غرامكم قبلي لأني اعد الحب قرآنا
والحب ارخص من اقدارنا بكم لولا هوانا بكم ما كان أغلانا
الروح جارت علينا في محبتكم وطالما أشقت الأرواح أبدانا

احب واشتاق ورصع حبه بالحكمة والطهر واستذكر أحبابْه في شعر يأخذك إلى قرطبة أو اشبيلية حيث نونية ابن زيدون المخزومي و(اضحى الثنائي).. وعلى الهائية تأتي تهنئة الشاعر لصديقه محمد علي العلاق بزواجه(٥٣):

اهوى لاجلكم العراق فمنيتي في قربكم لاخصبه أو ريفه
لي فيكم قمر يهيجني له ان البعاد يروعني بخسوفه
ما هاج قلب الصب إلا الصدغ في تشويشه والشعر في تصفيفه
الله يشهد أنني ألقى الهوى بلسان فاسقه وقلب عفيفه

لم يترك الجواهري فرصة إلا وعبر فيها عن عشقه لعراقه ومحاباته له فقد وجد من وفاة مهدي الخالصي بفارس مناسبة لهذا الدفق الشعري المفعم بحب العراق وقد بلغ

اشده في ان يضن الشاعر بنعش الخالصي ان يدفن بفارس بعيدا عن ارض العراق التي يراها أحق بأبنائها(٥٤):

قومي البسي بغداد ثوب الاسى وان الذي ترجينه غيبا
ان الذي كان سراج الحمى يشع من غيهبه كوكبا
قومي افتحي صدرك قبرا له وطرزيه بورود الربى
ردي إلى اوطانه نعشه لا تدفني في فارس (يعربا)

وفي رثائه لطاهر فرج الله يأخذنا الجواهري إلى مهيار الديلمي واجواء الرثاء العربي الاصيلة فيذكرنا بالشريف الرضي حيث يرثي ويرثى(٥٥):

ماذا يقول لسان الشعر في رجل خير البنين بنوه وهو خير أب

وفي قوله(٥٦):

لا عيب فيه سوى اسرافه كرما يوم النوال ولولا ذاك لم يعب
انسى الجليس وإن نابته نائبة كأنه - وهو دامي القلب - في طرب
كل الخصال التي جمعتها حسنت وقعا واحسن منها طبعك العربي
إن انكرتني أناس ضاع بينهم قدري فمن عرف (الحجار) بالذهب
شيئان يرفع قدر المرء ما ارتفعا نظم لدى الشعر أو مأثورة الخطب

لقد جمع شاعرنا خصال المرثي الحميدة وعرضها بأسلوب شعري يتموج بين الاستفهام والشرط والمدح بما يشبه الذم فمن الخبر إلى الإنشاء ومن خصال المرثي إلى مفاخر الشاعر.. حيث تتخالط الرؤى في مطاوي البائية غير ان شفقا احمر أضاء رحابها فنداح في عروقها شغف بالأصل العربي وهو أحد ملامح حب الجواهري لعراقه وهذا ما ينكره حساده واعداؤه المستكلبون عليه وهم ذاتهم الذين قصدهم بقوله في قصيدة عصماء بعد بلوغه الثمانين من عمره(٥٧):

ما ساءهم قرحة تشوى بها كبدي وما يسرهم كحل على المقل
مروا (لئاما) على الظامئ وغلته وعندهم كل مئا يشفى من الغلل
وغادروه (بموماة) كأنهم ليسوا ذوي ناقة منه ولا جمل
الضاحكين بنصف السن) كاشرة وينطف (النصف) مطويا على الدخل

والجواهري يحمل منقارا واجنحةً يتنقل من شجرة لاخرى ومن غصن لاخيه وعلى اختلاف الشجر يختلف الثمر فمنه الحلو كالعسل واخر كالحنظل.. فمن رثاء صديق إلى تهنئة آخر ومن هذه إلى وصف ومنهما إلى وقفة تامل ومراجعة للنفس فالقوافي تتموج وتتنوع على لسانه كقوس قزح يرصع بها أفق القصيد من بائية إلى دالية ومنهما إلى قافية وهكذا تنثال القوافي تحمل أفكار الشاعر واحساسه بما يجري في البلاد وهو القائل(٥٨):

لا تعجبـــوا القـــوافي حزينـــة فكـــل بـــلادي في ثيـــاب حـــداد
ومـــا الشـــاعر إلا صـــفحة مـــن شـــقائها ومـــا أنـــا إلا صـــورة لـــبلادي

وفي ترحيبه بالملك فيصل الأول بعد عودته من لندن كان قد اغرق الهمزة بالانداء قافية لقصيدة مترفة(٥٩):

يـأبى شـعوري ان يلقـاك عـن كثـب إلا بقافيـــــة تاتيـــــك غـــــراء
ومرحبـــا بـــك في طياتهـــا نفـــس كنســـمة الفجـــر قـــد طلـــت بانـــداء

والجواهري ابن النجف حيث العمائم واللحى ورجال الدين لم يتوان عن مهاجمة المظهر الخادعة للدين وهجاء من تكلم باسمه زوارا وذلك في قصيدة (رجعيون)(٦٠):

تحكـــم باســـم الـــدين كـــل مـــذمم ومرتكـــب حفـــت بـــه الشـــهبات
ومـــا الـــدين إلا آلـــه يشـــهرونها إلى غـــــرض يقصـــــدونه وأداة
يـــدي بيـــد المستضـــعفين اريهـــم مـــن الظلـــم مـــا تعيـــا بـــه الكلمـــات

وقد دفع الجواهري ثمن مهاجمة الرجعيين والمنافقين والجهلة فلم يترك مناسبة حتى يدك حصونهم وقلاعهم بصواعقه ومحرقاته وهو القائل(٦١):

وكنت متى اغضب على الدهر ارتجل محرقـــة الأبيـــات قاذفـــة جمـــرا

وجمر القوافي يتوقد في أوقات الحزن والغضب.. كما توقد في مراثي عبد المحسن السعدون وابي التمن والهاشمي وغيرهم وقد خص الجواهري السعدون بأكثر من ثلاث قصائد بث الشاعر حزنه من خلالها مع الإعلان عن موقفه السياسي إزاء الأحداث الدائرة في البلاد وكأنه يصدر منشوراً سياسياً وقد مزج ذلك كله بعواطفه المذابة مع حبر كلماته الى منها(٦٢):

هـــذا القصـــيد (أبـــا علـــي) كلـــه حـــزن عليـــك وكـــل ســـطوره أوصـــاب
ث ان ابيـــــاتي لســـــان عـــــواطفي ثـــــق ان قلـــــبي بيـــــنهن مـــــذاب

وفي الميمية:

للشـــــاعرين قلـــــوب في تململـــــها هـــــي الـــــبراكين إذ تهتاجهـــــا الحمـــــم

فقلب الجواهري حين يذاب أو يثار يعني انه امتشق لسان النقد للأوضاع والحكومة والنواب والبرلمان وخنق الحريات والسخرية باشباه الرجال والراقصين كالقرود امام الحاكم.. ولهذا نستطيع ان نضع مراثي الجواهري ضمن غرض شعري جديد هو (الرثاء السياسي) وقد يتشابه مع ما عرف في العصر الأموي عن غرض شعري هو (الغزل السياسي) مع الفارق في المضمون والفن ومتطلبات العصرين ومن حمم الجواهري التي القاها على رؤوس المخانيث مناغاته مع الرصافي في رائية هذا منها(٦٣):

تعيب على السعر التحايا رقيقة وتلثم من (بغل هجين) حوافرا
تريد القوافي المؤنسات عفيفة وقد اشغرت -للفاحشات- الضمائرا
وتنكر ان يستنشق الشعر (نفحة) وقد فغرت اشداقها والمناخرا
وتهوى على (أم الدنايا) مباطنا تلقي عليها من اباء مظاهرا
كما اسدلت ليلا (هلوك) ملحة على مخدع العهر الحرير ستائرا

هذا هو الجواهري وهذا فنه المؤجج بالغضب الذي يتكرر في قصائد الجواهري الراثية كلها فهو موزع بين مهاجم وشاتم ومعرض ومزمجر وحزين وبين غارس أمل وموقد شمعة وداعية للاصلاح والبناء والحرية والثقة بالمستقبل الزاهر للشعب والوطن والنهاية المخزية للطغاة(٦٤):

لا بد ان يثب الزمان وينثني حكم الطغاة مقلم الاظفار
وتجدد الأيام عهد وصالها من بعد اعراض لها ونفار

وفي قصيدة حيا فيها عبد الكريم قاسم وجه الجواهري إنذار للمتطالولين على السلام والحياة والحرية في العراق(٦٥):

لم يبق شيء لم نقله تشكيا فيما مضى بالمصرحات وبالكنى
كنا نقول لهم حذار من لظى أما اغتلى ومن اللهيب إذا أدنى
ومن السجون الداجيات فإنها كانت وما زالت لباغ مدفنا
ومن الصدور الحابسات زئيرها ومن النفوس الكاظمات تحينا

وفي شدوة للمناضلين في حزب الاتحاد الوطني الذي كان الشاعر أحد مؤسسيه يتعالى الصوت ويصدح (الغد) في قوله(٦٦):

وان غدا باسما يجتلى بشق النفوس ولا يوهب

ويحذر من مشقة النضال ومفاجآته بأسلوب لغوي كانت (سوف) إحدى أدوات التعبير فيه وقد كررها اكثر من سبع مرات(٦٧):

وسوف يخونكم (خائف) وسوف يساومكم اشعب
وسوف يزاملكم خطوة ويخذلكم خطوة متعب
وسوف تضيق بكم دوركم وسوح سجون بكم ترحب

لقد اجمل الجواهري ظروف الكفاح الصعبة وما يتعرض له السياسيون العراقيون في نضالهم ضد السلطة القائمة التي اتخذت الإرهاب والبطش بمعارضيها نهجا سياسيا في أربعينيات وخمسينيات القرن العشرين غير ان هذا النهج قد بلغ ذروته وابشع صوره في ظل حكم فاشي حكم العراق منذ ١٩٦٨ حتى ٩/نيسان/٢٠٠٣ المبارك إذ بدأ به عهد جديد هو عهد الحرية في العراق.

وإذا طوينا قصائد الرثاء والتهنئة والهجاء والمطارحة جانبا واتينا إلى بائية الوتري قصيدة شحن الجواهري فيها ديوان شعر كاملا يتفرع إلى قصائد تجمع بين مدح وفخر وهجاء ووصف وشكوى وزهو وتحدي ومواجهة حادة مع الطغاة ومهما اختلفت الكأس الشعرية التي يترعها الشاعر فان العراق يبقى هو السائل الوردي الذي يتسلسل في ثنايا القصيدة بلداً مضاما منهوك الكرامة والقوى مغلوبا على أمره وامر رجاله ونوابغه ومثقفيه (والمبدعين) (الخالقين) والحاضنين جراحهم والصابرين الواهبين نفوسهم والمخجلين بها (الكريم الواهبا) وعلى الضفة الأخرى من القصيدة يقف الخائنون والمتنمرون والذين ان حمي الوطيس وتضرمت نارها يلزمون (جحورهم) كالأرنب، وهذا شأن الطغاة على اختلاف بلدانهم ومنهم طغاة العراق هؤلاء الذين حط الجواهري من أقدارهم -وهي المنحطة- إذ خاطبهم هازئاً:

أنا ذا امامك ماثلا متجبرا أطأ الطغاة بشسع نعلي عازبا

ومن صواعقه على رؤوس الطغاة ما قاله في هذه البائية الحارقة(٦٨):

مجدت فيك مشاعرا ومواهبا وقضيت فرضا للنوابغ واجبا
ولأنت صنت الدار يوم اباحها باغ ينازل في الكريهة طالبا
ولقد رأى المستعمرون فرائسا منا وألقوا لكلب صيد سائبا
فتعهدوه فراح طوع بنانهم يرون انيابا له ومخالبا
مستأجرين يخربون بلادهم ويكافئون على الخراب رواتبا
متنمرين ينصبون صدورهم مثل السباع ضراوة وتكالبا
حتى إذا جدت وغى وتضرمت نار تلف اباعدا واقاربا
لزموا جحورهم وطار حليمهم ذعرا وبدلت الأسود ارانبا

هذا هو طبع الطغاة وديدانهم وقد ازجى لنا شاعرنا ذلك الطبع الرديء للطواغيت مع نبوءة قدح بها زناد فكره واستشرفها بصره الثاقب إذ نظر إلى ذلك الجحر الضيق المركون فيه إحدى مزارع تكريت قبل اكثر من نصف قرن وكأنه يسير إلى جوار سانشيز وجنوده ليلة القبض على الطاغية في عملية الفجر الاحمر البهيج*.

وإذا كانت البائية على عنفها وقوتها وزلزالها لم تشف غليل الجواهري فراح يسرخ بالحكام ويتهكم عليهم بلغة تليق بهم وذلك في قصيدة (ما تشاءون) (٦٩):

كاذب من يخيفكم بعظات ويصدع
ويريكم مصارعا لطغاة (تصرعوا)
حسبوا الليل مركبا فإذا الفجر يطلع
وإذا كل روضة ازهرت امس بلقع
كاذب كل همه ان تخافوا وتفزعوا
لكم (الجن) تهرع مثلما (الانس) تخضع

رسم الجواهري بلغة مترفة ساخرة صلدة مصير الطغاة وملامح ذلك اليوم الذي تتهاوى صروحهم وعروشهم وكراسيهم وقصورهم ويهدم على رؤوسهم كل ما ظنوه خالدا وهذه اللوحة تتسق مع لوحة (الجحور) وتتكامل لرسم نهاية الطواغيت المهينة على يد الشعوب وممن يساعدهم إنسانيا أو دوليا. وبعيدا عن السياسة والطغاة وبراكين الجواهري وحارقاته وبعيدا عن النوابغ وذوي المواهب والمبدعين تتجه عيون الجواهري لتلتقط صورة شعرية لعراقي بسيط يراعى أغنامه في إحدى القرى العراقية إذ كان هذا الراعي العراقي محط اهتمامه(٧٠):

يـــا راعـــي الأغنـــام أنـــت اعـــز مملكـــة واعلـــى
لله ملـــــك مـــــا أدق ومـــــا ارق ومـــــا اجـــــلا
يريـــــك مـــــن رشـــــفاته قمـــــر الســـــما إذا اطـــــلا
وتلـــم مـــن الاسمـــار عنـــ ـــقود النجـــوم إذا تـــدلا
لا تخـــش بـــؤس غـــدا يشـــو ه مـــن جمـــال (اليـــوم) شـــكلا

على جمال الصور في هذه القصيدة لم ترتق إلى مصاف (أم عوف) على الرغم من ان الموضوع هو واحد (راع وراعية) ولعل الحالة النفسية للشاعر والاوضاع العامة في العراق كانتا وراء هذا التفاوت في رقي الفن بين القصيدتين.. فـ(أم عوف) ملحمة و(أبو المعزى) لمحة خاطفة أو ومضة وجدت لهيبها في (أم عوف) أو مهدا لها فـ(راعي الأغنام) اسبق زمنا من (أم عوف) مع ان القصيدتين مسيستان وفيهما من خواطر السياسة ما يغنيهما وان كانت (أم عوف) (أدق وارق واجل) فنا وتصويرا من (أبي الأغنام)... ومن هذا إلى أنصار السلام متطلعاً وهاتفاً(٧١):

امنـــت بالســـلم لا ديـــن لمـــن كفـــروا بـــه وديـــن لاهليـــه وان كفـــروا

ينتقل قلم الجواهري كالفراشة من حقل لحقل ومن زهرة لزهرة لا ليرشف الرحيق بل يمنح الزهور عسلا مصفى تمجه القريحة كما تمج الشمس أنوارها.. ومن ذلك العسل كانت هذه القطرات من نصيب صديق الشاعر (عبد اللطيف الشواف)(٧٢):

فســـكرا يعقـــب ألســـكرا وســـكرا يعقـــب الشـــكرا
وشـــوقا يلـــذع الأضلـــ ـــع حتـــى خلتـــه جمـــرا
وميثاقـــا بـــأن نبقـــى كـــ (إخـــوان الصـــفا) دهـــرا

ومن (الشواف) إلى الشوعيين وللجواهري معهم صلة حميمة صلة كفاح وفكر ورؤى مشتركة ويجمعه معهم العراق بهمومه وجراحه ومستقبله الحر السعيد المنشود وقد انشد لهم:

حمـــاة النضـــال وجيـــل يفـــوز علـــى محـــور مـــن شمـــوس يـــدور

قصيدة طويلة ذات تركيب في خاص لا يخلو من تعقيد. ومن حماة النضال إلى خيال ابنة الشاعر وسبعة ابيات يسكب فيها الجواهري حنان الابوة الدافئ(٧٣):

لـــك مـــني عـــد النجـــوم ابتهـــالا ت ومـــن أمـــك الحنـــون دمـــوع
ان في البيـــت وحشـــة لحيـــا ك وشـــوقا تطـــوى عليـــه الضـــلوع

ومن خيال الجواهري إلى بحر العلوم وهو يرزح تحت سجن (نقرة السلمان) (٧٤):

يـــا أبـــا نـــاظم وســـجمك ســـجني وأنـــا منـــك مثلمـــا أنـــت مـــني
يـــا لطيفـــا إذا يســـتقى وكريمـــا إذ بســـاقي ومبـــدعا إذ يغنـــى
يـــا أبـــا نـــاظم ونحـــن حـــداة الـــ جيـــل نهديـــه دربـــه ونغـــني
نهـــدم الـــدهر مـــا ابتنـــاه طغـــاة ونعـــاني مـــا يهـــدمون ونـــبني

أما قبلاته الحارة فيرسلها إلى اسرته العائدة إلى العراق على جناح قصيدة لامية منها(٧٥):

ســـلاما أيهـــا الاحبـــاب ان محبـــة أمـــل
ســـلاما كلـــه قبـــل كـــأن صـــميمهما شـــعل
وشـــوقا مـــن غريـــب الـــدار اعيـــت دونـــه الســـبل

والجواهري شاعر شفاف مشواق لاهله واصدقائه ووطنه فمن براغ يرسل اشواقه لصديقه عبد الغني الخليلي(٧٦):

وبـــي شـــوق إليـــك يهـــز قلـــبي ويعصـــره فيخفـــق بالوجيـــب
وذكـــرى في فمـــي نغـــم مصـــفى برتـــل في الشـــروق وفي الغـــروب

ولم يفت الجواهري من ان يرصع ديوانه بتحية لحاضن الفصحى أحد اكبر أعلام اللغة والنحو في العصر الحديث الدكتور مهدي المخزومي(٧٧):

يـا كاسـي الجيـل مـن افضـاله مننـا منهـا تتيـه علـى أكتافـه حلـل
وحاضـن (اللغـة الفصـحى) وقـد عبثـت بهـا الجهالـة والاخطـاء والزلـل

ومـن المخزومـي إلى واحـد مـن المـع أساتذة الجامعـات العراقيـة الشخصـية الأكاديميـة المعروفة الدكتور محمد مجيد السعيد حيث خصه بهذه النادرة(٧٨):

شـــوقا إليـــك ايـــا غـــدير شـــوق الأســـير إلى البشـــير
شـــوق الغريـــب إلى الحمـــى شـــوق الظمـــيء إلى الغـــدير
شـــوق تضـــيق بـــه الضـــلوع فيســـتفيض علـــى الضـــمير

ثم يقول مخاطبا (أبا غدير) بهذا النداء وهذا الوفاء:

ايـــا غـــدير والحيـــاة تـــدور طـــوع يـــد المـــدير

تتعثـــــر الأيـــــام بـــــالاعوام فيهـــــــــا والشـــــــــهور
مـــــا كـــــان اتفـــــه طعمهـــــا لـــــولا جـــــني كـــــرم وخـــــير
ممـــــا جبلـــــت عليهمـــــا جبـــــل الريـــــاض علـــــى العـــــبير
فـــــإذا عمـــــرت بـــــك القصـــــيد ونمـــــا شـــــعري عـــــن شـــــعوري
فـــــلأن حبـــــك في دمـــــي ينســـــاب مـــــا بـــــين الســـــطور

فالجواهري يعرف كيف يلتقط جواهره ولا يثنيه عن احتضان أية منها ما يحيط بها من طين إذا انه يدرك بان الجوهرة الاصيلة تبقى لامعة تدل على نفسها ونفاستها بما تملك من مزايا منها (كرم النفس ورقة الطبع ودمائه الخلقوسعة الهلم وحسن الأدب) وهذه لعمري كلها قد صيغت منها شخصية الدكتور محمد مجيد السعيد بالرغم من انحدار من (تكريت) واقتراب السلطة الفاشية منه:(٧٩) وإذا كان الجواهري قد مر على حشد من الشعراء والادباء والاطباء والاكاديميين والساسة فضلاء عن بسطاء الناس ساكبا حبه واشواقه معبرا عما يمور في اغوار نفسه من غضب وعتب ورجاء بقواف كانها اوتاد من ذهب، فانه يقف عند صنوه ومثيله ومضاهبه المتنبي وقفة أطول.. يقف مزهوا وشاكيا ومتطلعا ومستجيرا لائذا به كما لاذ بالحسين وبقفص العظام وبجعفر وامونة وبالاحرار من بني وطنه حين ادلهمت الدنيا أو غامت السماء فـ(بالمتنبي) تتكامل دورة البدر التمام ويلتئم شمل العراقيين تحت افياء قصائد الجواهري وظلال ابياته. لقد التقى العراق بأرضه واهله في لوحة نابضة بالحب والحياة والامل رسمها الشاعر لم تعرف اللغة العربية مثيلا لها سوى لدى مواطنه وابن عراقه وكوفته المتنبي. لقد ملأ الاثنان الدنيا وشغلا الناس بالنغم والحداء والقصيد والكبرياء على ما بين الشاعرين العملاقين من فوارق في الصور وأصباغها وموضوعها، فكلاهما شاعر تكسرت النضال على اهداب جراحه وواجه الزمان وتحدى السلطان وسخر به.. واحتقر الراقصين كالقرود في بلاطه وقصره على (ضخامة جثثهم) وإذا كان الشاعران العراقيان الكوفيان العملاقان المتنبي والجواهري قد ابتليا بمحنة الغربة والبعد عن عراقهما فان الشوق للوطن والحنين إليه قد هزا اعماق الشاعرين وكابدا ألامها.. بيد ان الجواهري كان قد اضطرمت نيران الشوق في جوانحه وتسربت إلى حناياه فقال(٨٠):

ســـــهرت وطـــــال شـــــوقي للعـــــراق وهـــــل يـــــدنو بعيـــــد باشـــــتياق
وانـــــي والشـــــجاعة في طبـــــع جبـــــان في منازلـــــة الفـــــراق

وظل الجواهري يشتاق للعراق حتى انصهرت جوانحه بوقيد شوقه(٨١):

حملـــت همـــك في جـــنبي اصـــهره في لاعـــج يوقـــد الشـــوق منصـــهر
وكنـــت نـــوري في ليـــل وغربتـــه حتـــى كـــأن النجـــوم الـــزرق لم تنـــر
عـــود إليـــك بأقـــدام موطـــأة علـــى دروب جراحـــي فوقهـــا اثـــري

والجواهري حين يغترب أو يبتعد عن العراق فالشوق إلى العراق يكون عبر دجلة والفرات(٨٢):

وانـــي لاشـــتاق الفـــرات واهلـــه ويـــروقني ظـــل عليـــه ظليـــل
واحـــب شـــاطئه وروعـــة ســـفحه تحنـــو علـــى الأمـــواج فيـــه نخيـــل

والجواهري العراقي الذي اكل الشوق كبده كما أكلت القوافي لسانه قد حمل ذلك الشوق على اجنحة صور شعرية ناطقة بالجمال تفرد بها هو، لان الشوق في شعره كان يتدفق مع الماء ويتماوج معه ويهتز كالغصون ويتمايل معها سواء في مصايف إيران أو في غابات براغ حيث الكؤوس والاسمار والانغام والبغام!! ومما يؤكد تضرم شوق الجواهري وصدقه ان مغريات المهجر لم تستطع ان تنال منه أو تخمد جذوته أو تحد من عنفه.. فالجواهري يهفو إلى العراق وهو (مضنى لقلب موجعه) على ما فيه من جمر واشواك وقهر وقد منح اشواقه لمسة وطنية قلما وجدت في اشواق المحبين، انه قد اغرق اجفان القصيدة بماء الشوق ونداه وافغم شعره بعبير التحية والدعاء للوطن طبيعة واهلا(٨٣):

ســـلام علـــى ارض الرصـــافة إنهـــا مـــراح ذوي الشـــكوى وســـلوة ذوي المجـــد
لهـــا الله مـــا ابهـــى دجلـــة حولهـــا تلـــف كمـــا التـــف الســـوار علـــى الزنـــد
تعطـــر أرجـــاء النســـيم كأنهـــا تـــنفس فيهـــا الـــروض عـــن عـــابق النـــد
هـــواؤك أم نشـــر مـــن المســـك نـــافح وارضـــك يـــا بغـــداد أم جنـــة الخلـــد

وهنا التقى الجواهري باقرانه من الأندلسيين في شوقهم ووصفهم الأندلس بالجنة أو الفردوس ومن (دالية السلام) إلى (يائية التحية)(٨٤):

يـــا نســـيم الـــريح مـــن بـــين الريـــاحين حـــي الرصـــافة عـــني ثـــم حيـــيني
هـــل غـــير نفـــس هـــوت شـــوقا لمالئهـــا شـــوقا يصـــعد بـــين الحـــين والحـــين

وبالسلام يعطر الجواهري احواء قصائد وصف العراق والشوق إليه(٨٥):

ســـلام علـــى هضـــبات العـــراق وشـــطيه والجـــرف والمنحـــى
علـــى النخـــل ذو الســـعفات الطـــوال علـــى ســـيد الشـــجر المقتنـــى
علـــى الرطـــب الغـــض إذ يتجلـــى كوشـــي العـــروس وإذا يجتنـــى
وبالســـعف وبـــالكرب المســـتجد ثوبـــا (تهـــرا) وثوبـــا نضـــا
ودجلـــة تمشـــي علـــى هونهـــا وتمشـــي رخـــاء عليهـــا الصـــبا
ســـلام علـــى قمـــر فوقهـــا عليهـــا هفـــا واليهـــا رنـــا
ســـلام علـــى جـــاعلان النقيـــق علـــى الشـــاطئين وبريـــد الهـــوى
وحبـــل ضـــياء تـــدلى بـــه علـــى أفـــق أفـــق والتقلـــى
ســـلام علـــى بلـــد صـــنته وايـــاي مـــن جفـــوة أو قلـــى
كلانـــا يكابـــد مـــر الفـــراق علـــى كبـــدينا ولـــذع النـــوى

فالجواهري والعراق متكافئان الحب والشوق بعضهما البعض (كلانا يكابد) مر الفراق ولذع النوى ويظل يزجي الجواهري تحاياه إلى بلده واحراره(٨٦):

سلام على حاقد ثائر على لاحب من دم سائر
سلام على جاعلين الحتوف جسرا إلى الكوب العابر
سلام على مثل بالحديد ويشمخ كالقائد الظافر
كان القيوم على معصميه مفاتيح مستقبل زاهر

غير أن أبا فرات كالفرات لا يستقر على حال فمن الوداعة واللطف وثوب السكون سرعان ما تراه مزمجرا هائجا عاصفا جارفا عرما ترتطم امواجه على صخور شواطئه فمن الصادح بالمنى والطافح بالحب والأشواق إلى المزمجر الغاضب الثائر المتوعد. فإذا كان ازجاء التحية والسلام والأشواق يمثل البحر في وداعته ورضاه. فان قصائده اللاذعة والعنيفة في سخريتها وتقحمها تمثل تمرده وهيجانه وسخطه على الأوضاع السياسية وانقلاب المقاييس في بلاده فآنذاك تتصاعد مرارة الكلمات إلى الحلق فتمتزج بحشرجة تحملها صرخة غاضبة بوجه الحاكمين وخدامهم وقد يصل الحنق والغضب إلى مديات ما كان ينبغي ان يصل لها لولا انزلاق بعض (أهل المدينة) إلى مهاوي (الرقص كالقرود) فاستحقوا سخرية الشاعر وازدراءه ورفضه لهم(٨٧):

خزيت بغداد من بلد كل شيء فيه مقلوب
فلق الإصباح غربيب ونعيق البوم تشبيب
والخنا غنم ومحمدة والنهى جلد وتعذيب

لم يترك الجواهري لفظا مقذعا إلا وفصله ثوبا لمن يرقص (كالقرد) من المهازيل والمناخيب والعلوج والاضاحيك والاخاشيب واليرابيع والعضاريط والزعانف والمنحوس و(ذو المشفر المثقوب) وصولاً إلى عبدة الجبورية(٨٨):

اعبدة يا ابنة الطرب لأم حلوة وأب
ويا غجرية تغني بكنيتها عن اللقب
(جبوريتها) كانت غطاء السبي والجلب

قصيدة طويلة غاضبة ساخرة رمى بها الجواري من أساء إلى جوهره وجواهره ممن استدعى السلطة القائمة في العراق عليه واستعان بها للنيل من عراقيته(٨٩). ولست ادري ان كانت هذه البائية الهجائية الساخرة من جبال الجواهري أم من حصاه.. اللذين يهوي بهما على رؤوس خصومه ويدكها(٩٠):

اهوي عليهم بالجبال ادكها يوما ويوما اكتفي بحصاتي

والضمير في (عليهم) يعود على أعداء الجواهري وهم ليسوا أعداء شخصيين للشاعر بل هم أعداء العراق من حكام ومنافقين وجلادين وظالمين واشباه مثقفين.. وقد يأتي في عداد هؤلاء (المجهزون على الجرحى) و(الخائنون) و(الرجعيون) و(الطبالون) و(المبخرون) وما سحي احذية السلطان.. لقد سخر الجواهري بهؤلاء جميعاً واعلن رفضه لنهجهم مجانفا دربهم الوبء ومن قصائده المعروفة بحق هؤلاء(٩١):

طرطرة تطر طري وهللي وكبري
وطبلي بكل ما يخزي الفتى وزمري
واغتصبي لضفدع سمات ليث قسور
وعطري قاذرة وبالمديح بخري
والبسي الغبي والاحمق ثوب عبقري
وافرغي على الخانيث دروع عنتر

وبعد هذه القذعة تأتي المطبقة على الضباب والدجى(٩٢):

اطبق دجى اطبق ضباب اطبق جهاما يا سحاب
اطبق على هذى المسوخ تعاف عيشتها الكلاب
لم يعرفوا لون السماء لفرط ما انحنت الرقاب
ولفرط ما ديست رؤوسهم كما ديس التراب

ومن طرطره إلى (اطبق دجى) ومنهما إلى اعاجيب بغداد (٩٣):

عدا على كما يستكلب الذيب خلق ببغداد أنماط اعاجيب
ما اغرب الجلف لم يعلق به أدب وعنده للكريم الحر تاديب
تسعون كلبا عوى خلفي وفوقهم ضوء من القمر المنبوح مسكوب
وقبل ألف عوى ألف فما انتفضت (أبا محسد) بالشتم الاعاريب

ولعل تنويمة جياع العراق (كل الجياع) تأتي ضمن هذا النمط من شعر الجواهري الساخر(٩٤):

نامي جياع الشعب نامي حرستك آلهة الطعام
نامي على زبد الوعود يداف في عسل الكلام
نامي على نغم البعوض كأنه سجع الحمام
نامي وخلي الناهضين لوحدهم هدف الرواميي

قصيدة طويلة لاذعة يستنهض الجواهري أبناء شعبه الذين مل النوم منهم ول يملوه.. وعلى هذا الغرار من السخرية السياسية صاغ الجواهري مواقفه من انقلاب المقاييس وتعكر الاجواء وتلوثها بسموم العنف والمظالم التي على مرارتها وقسوتها وآلام جراحها لم تثن الشاعر عن تقحم الأهوال مواصلا الكفاح يحمل العراق بين حناياه هما وجمرا

وجراحا ووطنا احبه حتى الشغاف واسكنه الجوانح والقوافي والحدقات رغم الجراحات.
وقبل ان الخص نتائج هذه الدراسة (العراق في شعر الجواهري) لا بد من التنويه بأن الجواهري قد احب العراق صوره بقصائده هن قلائد الشاعر وعقوده ومن لم يقرأ عراقيات الجواهري المشرق منها والمعتم فأنه لا يعرف الجواهري ولا يعرف العراق. وقد يحق لنا ان نخاطب الجواهري ختاما لهذه الدراسة بما خاطب هو به المتنبي وكأن الشاعرين شاعر واحد ومنارة واحدة تهتدي على اشعاعها أجيال من الشعراء والأحرار وعشاق الكلمة الحرة المثقفة المصاغة من الجمر والتبر والسحر(٩٥):

تحدى الموت واختزل الزمان ... فتى لوى من الزمن العنانا
تطوف الحور زدن بما تغنى ... وهن الفاتنات به افتنانا
فيا ابن الرافدين ونعم فخر ... بأن فتى بني الدنيا فتانا
ويا ابن الكوفة الحمراء وشى ... بها سمط اللآلىء والجمانا

ولما يحيق بنا من مخاطر واوضاع سياسية وثقافية داخلية واقليمية ودولية. نقول كما قال الجواهري للمتنبي يخاطبه بقوله(٩٦):

وخب بنا فقد شلت خطانا ... و(ضو) لنا فقد تهنا ضياعا
مقاييس قصرن على سوانا ... وأدركنا فقد طالت علينا
ولانسم يهب على ذرانا ... وقد غصنا فلا الاعماق منا
وقد أكلت أباطحنا ربانا ... وقد شمخت ملاعبنا علينا
وأنت دليل بقايا عيانا ... وإنا أمة خلقت لتبقى

وسنلتقي مع الجواهري نستظل اغصانه وننهل من عيون شعره نلتقط الجمان ونستاف الشعر والحبر والسحر والعبير عبير الحرية في دراسة أوسع تشمل بيادر شعر الجواهري كلها في عنوان جديد (الجواهري جمر وتبر وأرجوان).

الخاتمة

الجواهري بحر خضم متلاطم الأمواج غاضب صاخب مزمجر حينا وادع يرتدي ثوب السكون متناغم الالحان مفراح يموسق قوافيه كأنها امواج تداعبها النسمات أحيانا أخرى وهو بستان واسع المدى مخضوضر طيب الغرس والزهر والثمر والاقحوان... فليس من السهل خوض غمار هذا البحر ولا التطواف في رحاب ذلك البستان.. بيد ان لهذه الروح ما تاقت ولهذا القلم ما تمنى وحسبها محاولة فان وقفت فيها فهذا مصدر غبطتي وان تعثرت خطاي على دربها فأن المحاولات القادمة ستكون اينع ثمرا واصفى رؤية وأبعدها خطوة... فهذه خلاصة التطواف في بستان الجواهري والغوص في بحره بقلم لم يجرأ على النهوض بهذه الدراسة لولا ما فاض من القلب من حب وتعظيم للجواهري مستثمرا ما وفره العهد الجديد من حرية اشرقة شموسها على العراق وانزاحت عنه فيوم الاستبداد الداكنة.

١. الجواهري واحد من اعظم شعراء الإنسانية وهو شاعر القرن العشرين بلا منازع بين شعراء العربية فهو أبو الشعراء وسيد القافية.
٢. الجواهري شاعر الضاد ومترع كؤوسه نغما وسحرا وتبرا وجمرا واباء وارجوانا... وهو مقارع الطغاة بشسع نعل وقواف وبضع كلمات.
٣. الجواهري اعظم شاعر عرفته العربية بعد المتنبي وهما شاعران كوفيان عراقيان عربيان ملئا الدنيا ضجيجا ممسوقا وشغلا الناس يخصب العقول ويداعب القلوب خالد أبدا وكلاهما كانا يعشقان البطولة والكبرياء والوطن ولكل منهما سيف دولته وكافوره.
٤. لم يقتصر تأثير الجواهري عربيا كحرفه انشد للعروبة وحمل جراحها وانتصر لقضاياها.

بيد ان العراق كان يتوسد ذراع القصيدة الجواهرية وقد تعدى حب الجواهري للعراق من حالة عشق إلى وهلة بلغ حالة الهوس والجنون:

وعش بوطن في جسد وروح رضيع دم فليس له انفطام

٥. لقد عشق الجواهري العراق على أشواكه وادغاله وسجونه وثعالبه وارانبه وكلابه (وطغاته) وقد رسم للعراق xxxxx المذواق صورتيه المؤلمة وتلك ملامحها والمبهجة وقد تمثلت بكل ما هو جميل في العراق طبيعة واهلا منها دجلة والفرات وبغداد والشخصيات العراقية من الأحرار والادباء والشعراء والشهداء اباعد واقارب فكانت امونة في شعر الجواهري بمثابة رمز يوازي عائشة لدى البياتي ووفيقة عن السياب.
٦. خص الجواهري الشخصية العراقية المحببة إليه بقصائد رائعة كاللس فيصل والامير غازي والزعيم عبد الكريم قاسم والسعدون وابي التمن والشعراء الشبيبي

والشرقي وبحر العلوم والنقدي والرصافي والزهاوي ومن القدامى المتنبي وكان صنوه ومشاهقه كما عارض شعراء العراق وطارحهم وعرض ببعضهم.

٧. انطوى شعر الجواهري في العراق على معجمين أولهما هجائي مزلزل الفاظه الظلام والدجى والدُنس والثعالب والافاعي والكلاب... والطغاة والاقزام وغيرهم وثانيهما مدحي وجداني مخملي محبب مفرداته الضوء والورد والسنا والكأس والاحباب (البغام) والاسمار والنغم.

وجعل هذين المعجمين في ثنائية شعرية فنية تجسد ثنائية الواقع العراقي وتعقيداته وتناقضاته واصبح الشاعر ذاته صورة ناطقة لذلك الواقع العراقي وتعقيداته وتناقضاته واصبح الشاعر ذاته صورة ناطقة لذلك الواقع وهو القائل:

نفس تجيش باعصار وخافقة ... تحن للكأس والاسمار والقبل
كأن صحو الرؤى في كل نازلة ... يشدني بطيوف الشارب الثمل

٨. الجواهري شاعر الشعب العراقي انشد له وللحرية التي طالما تغنى بها وكافح من اجلها شاعرا ومناضلا وصحفيا ونائبا طوال عمره الطويل.

٩. لم يترك الجواهري من فرط عشقه لعراقه بقعة من أرضه إلا واضاءها بقطرة دم أو حرف منور أو كلمة مثقفة ترقص كزهرة على غصن قافية أو نصل على اهداب جرح.

١٠. صنع الجواهري رموزه ولم يستجلبها جاهزة لتجربته الشعرية على غرار السياب والبياتي وأدونيس وغيره من معاصريه... ولم يستعن بالتراث الأسطوري العراقي والعربي والإسلامي إلا ما ندر فلم يلتقط سوى (الحسين) رمزا للثورة والاباء والى جوار (الحسين) كانت دجلة والفرات وبغداد وامونة وجعفر (وقفص العظام) رموزا أخذت مجلسها في حرم القصيدة. وهذا ما لم يلتفت إليه النقاد ومنهم الأستاذ جبرا إبراهيم جبرا كما مر ذكره.

١١. كان يمكن لهذه الدراسة ان ترتقي في بعض احكامها وتصوراتها لو توفرت لها مذكرات الجواهرية في وقت مناسب إذ لم تكن تلك المذكرات بين يدي الباحث إلا بعد ان وضع اللمسات الأخيرة لهذه الدراسة مما افقده فرصة الاستنارة بنثر الجواهري لسبر اغوار شعره الذي دار في اغلبه حول العراق تأريخاً سياسيا وطبيعة آسرة واهلا كراماً.

١٢. فيما أنا اخوض غمار بحرْ الجواهري في جذل وغبطة مغمورا بامواجه التي ترتطم على صخور شواطئه وإذا ببعض من الشوائب قد لامست اسلة هذا القلم وغدا نافرا لبرهة من الزمن فتحت خلالها عيني اكثر مستلا تلك الاوشاب التي علقت بامواج الجواهري النقية وقد تمثلت بالفاظ مثل (جيش العراق) و(أبا هيثم) و(ابن الحسين) و(سميدعا) و(قادة البعث) و(خطو الصيد) و(سلمت ثورة) وغيرها من

الاوشاب التي لحقت أذيال بعض القصائد وقد تجنبتها غير مكترث بها انطلاقا من حقيقة مفادها ان البحر لا يصفوا تماما (فلا بد) كما قال الجواهري نفسه مخاطباً الوتري:

لا بد (هاشم) والزمان كما ترى يجري مع الصفو الزلال شوائبا

بيد ان بحر الجواهري لا ترنقه الشوائب ولا تكدر صفوه الاوشاب فهو بحر يعيش بين جوانحه الدر والياقوت والزمرد والعسجد والمرجان وكل ما خلق الله من كنوز البحار ويبقى الجواهري منارة الشعر العربي وعنوان الإبداع وسارية العشق ومرساة الأمل والكبرياء نهرا من القوافي والاغاني والترانيم والحداء ولنا مع الجواهري العراقي العراقي والعربي العربي والعظيم العظيم وقفة أخرى متسعة تشمل بيادر شعره كلها بعنوان جديد (الجواهري: جمر وتبر وارجوان).

الهوامش

(١) الجواهري والطغاة في (رسالة إلى محمد علي كلاي) الدكتور سعيد عدنان.

(٢) ديوان الجواهري: ٥/٨٣، جمع وتحقيق د. المخزومي والسامرائي واخرين، وزارة الإعلام ١٩٧٣.

(٣) نفسه: ١/٣٨٦.

(٤) نفسه: ١/٣٩٩.

(٥) نفسه: ١/٣٢٩.

(٦) نفسه: ٥/٣٢٤.

(٧) نفسه: ١/١٨١.

(٨) المجموعة الكاملة جبران خليل جبران: ١٦٣.

(٩) تنظر مقدمة الجواهري لديوانه ج١.

(١٠) ينظر النار والجوهر / جبرا:٣٤.

(١١) ينظر طوق الحمامة ابن حزم الأندلسي.

(١٢) ديوان الجواهري: ١/٨٥.

(١٣) نفسه: ٦/٢٢٣-٢٢٥.

(١٤) نفسه: ٣/٢٥٩.

(١٥) نفسه: ٣/٢٥٩.

(١٦) نفسه: ٣/٢٨٧.

(١٧) نفسه: ٢٢٣ - ٣/٢٢٤.

- وقولة الحسين المشهورة (لا اعطيكم بيدي إعطاء الذليل ولا اقر لكم إقرار العبيد...) ولعلها الومضة التي أضاء الجواهري بها رحاب هذه القصيدة.

(١٨) تنظر دراسة (الجواهري والطغاة).

(١٩) ديوان الجواهري: ٥/٨١.

(٢٠) نفسه: ٦/٨٦.

(٢١) قصيدة (في اعياد الثمانين) للجواهري لم يضمها ديوانها بهذه الطبعة وقد نشرتها مجلة الثقافة العدد ٤-٥ سنة ١٩٨١/ ص١٦.

(٢٢) ديوانه الجواهري: ٦/٢٠.

(٢٣) نفسه: ٥/٣١٨.

(٢٤) نفسه: ١/٢٢٢.

(٢٥) ينظر النار والجوهر: ٣٤.

(٢٦) ديوان الجواهري: ١/٣٣٦.

(٢٧) نفسه:١/٤١٣.

(٢٨) نفسه: ١/٣٨٥.

- الجسر كان يسمى عهد ذاك جسر (مود) واليوم يسمى جسر الشهداء.

(٢٩) ينظر المقال بقلم الأستاذ علي الطنطاوي العدد ٢٠٠٠/ السنة ١٩٣٧ الرسالة للزيات/ص٣٣٧.

(٣٠) ديوان الجواهري: ٤/٣٦٠.

(٣١) نفسه: ٤/٩٤.

(٣٢) نفسه: ٧/٢٤.

(٣٣) تنظر مدينة بلا مطر للسياب.

- مقدمته لديوان ج١:

(٣٤) ديوان الجواهري: ٥/٣٦.

(٣٥) نفسه: ٣٦ / ٥ يستنشق من أبياتها عطر المتنبي واصداء قصيدته في كافور (أبا كل طيب لا أبا المسك وحده).

(٣٦) نفسه: ١/٣٨٥.

(٣٧) نفسه: ٧/٢٣٧.

(٣٨) نفسه: ٥/٣١٩.

(٣٩) نفسه: ٧/١١٠.

(٤٠) نفسه: ٥/١٠١.

(٤١) نفسه: ٥/١٧١.

(٤٢) ديوان الجواهري:٤/٣٢٨.

- لم يتسنى لي الحصول على ديوان الجواهري - طبعة المدى فقد كانت شاملة لكل نتاج الشاعر تقريبا وفيها قصائد خص بها شخصيات عراقية غير التي احتوتها طبعة وزارة الإعلام العراقية.

(٤٣) نفسه: ١٥٧ - ١/١٥٨.

(٤٤) نفسه: ١/١٥٩.

(٤٥) نفسه: ١/١٧٥.

(٤٦) نفسه: ١/١٧٨.

(٤٧) نفسه: ١/١٧٨.

(٤٨) نفسه: ١/٢٣٥.

(٤٩) نفسه: ١/٢٣٧.

(٥٠) نفسه:١/٢٥٣.

(٥١) نفسه: ١/٢٥٥.

(٥٢) نفسه: ١/٢٩٢.

(٥٣) نفسه: ١/٢٧٥.

(٥٤) ديوان الجواهري:١/٢٨١.

(٥٥) نفسه: ١/٣٠٠ نشرت جريدة الصباح العراقية في عددها (٤٨) سنة ٢٠٠٤ مقالا د. أحمد فرج الله (فصل القول في الراثي والمرثي).

(٥٦) نفسه: ١/٣١٠.

(٥٧) نفسه: نشرتها مجلة الثقافة العراقية بعددها السادس والسابع/ ١٩٨٢ د. صلاح خالص/ ١٩٨٢ الصفحة ١٠-١٧.

(٥٨) نفسه: ١/٤٣٩.

(٥٩) نفسه: ١/٤٢٧.

(٦٠) نفسه: ١/٤٩٩.

(٦١) نفسه: ٢/٨٦.

(٦٢) نفسه: ١/٥٠٥.
ذلك الغضب وضرمه.

(٦٣) نفسه: ١/٧٦.

(٦٤) نفسه: ١/١٤٥.

(٦٥) نفسه: ٤/٣٠٤.

(٦٦) نفسه: ٣/١٦٩.

(٦٧) نفسه.

(٦٨) نفسه: ٣/٣٩٥.

- الفجر الاحمر العملية العسكرية التي ألقى القبض فيها على الطاغية صدام حسين وهو مختبئ في جحره بلحية كثاء وشعر منفوش وملابس رثة متسخة كالاسمال يوم ٢٠٠٣/١٢/١٤.

(٦٩) ديوان الجواهري: ٤/١٤٩.

(٧٠) نفسه: ٤/١٨٧.

(٧١) نفسه: ٥/١٦٨.

(٧٢) نفسه: ٥/١٦٧.

(٧٣) نفسه: ٥/٢٣٥.

(٧٤) نفسه: ٥/٢٢٩.

(٧٥) نفسه: ٥/٨٣٧.

(٧٦) نفسه: ٥/٢٥٩.

(٧٧) نفسه: ٧/٣١.

(٧٨) قصيدة نادرة لم يضمها ديوان وهي بخط الجواهري مهداة إلى الدكتور: محمد مجيد السعيد اعجابا به ومحبة له مؤرخة في ١٩٨٠/٢/٢٨.

(٧٩) كان الدكتور السعيدْ في مجالسه الخاصة يندد بارهاب السلطة ويستهجن حماقاتها ضد الشعب العراقي والشعوب العربية والإسلامية.

(٨٠) ديوان الجواهري: ٣/٣٧١.

(٨١) نفسه: ٥/٣١٥.

(٨٢) مر ذكرها.

(٨٣) نفسه: ١/١٩٨.

(٨٤) نفسه: ٣/٢٢٦.

(٨٥) نفسه: ٤/١٠٨.

(٨٦) نفسه: ٧/٢٤٠.

(٨٧) مجلة الثقافة العراقية/ العدد الرابع والخامس/ ١٩٨٢.

(٨٨) المقصود بالقصيدة مؤلف كتاب (جوهرة الجواهري) وفيه ما فيه من كلام زائف اغضب الشاعر وكانت البائية إحدى شرارات ذلك الغضب وضرامه.

(٨٩) ديوان الجواهري: ٣/١٢١.

(٩٠) نفسه: ٣/٤٠٧.

(٩١) نفسه: ٤/١٥٩.

(٩٢) نفسه: ٤/٧٣.

(٩٣) نفسه: ٤/٧٣.

(٩٤) نفسه: ٧/١٠١.

(٩٥) نفسه: ٧/١٠٧.

المصادر

١. الجواهري والطغاة في (رسالة إلى محمد علي كلاي) الدكتور سعيد عدنان، مخطوط.

٢. ديوان الجواهري، سبعة أجزاء، وزارة الإعلام العراقية، جمع وتحقيق الدكتور المخزومي واخرين، بغداد/ ١٩٧٣.

٣. طوق الحمامة لابن حزم الأندْلسي، جميع الطبعات.

٤. المجموعة الكاملة جبران خليل جبران/ دار صادر بيروت، ١٩٦٤.

٥. النار والجوهر جبرا إبراهيم جبرا / المؤسسة العربية للدراسات والنشر ط٢، بيروت /١٩٨٢.

الدوريات

١. جريدة الصباح العراقية / العدد ٤٨ السنة ٢٠٠٤.

٢. الرسالة للزيات / العدد ٢٠٠٠ الصفحة، ٣٣٧ السنة ١٩٣٧.

٣. مجلة الثقافة العراقية يصدرها الدكتور صلاح خالص / العدد الرابع والخامس - والعدد السادس والسابع ١٩٨٢.